أثر السياق في اختيار المفردات والتراكيب في القرآن الكريم

"حادثة الإفك أنموذجاً"

د / محمد حسن منصور عابد

كلية العلوم والآداب برنية

جامعة الطائف

أولاً: مقدمـــة البحث:

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) الحجر:(٩) والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الذي أنزل عليه القرآن ليبينه للناس، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن سار على دربه واقتفى أثره إلى يوم الدين .

أما بعد: فإن دراسة السياق محور رئيس من محاور علم الدلالة، وهو ثمرة من ثمرات اللسانيات ؛ إذ جعلت منه نظرية ومنهجاً متكاملاً في دراسة المعنى، وحيث يظن البعض أن نظرية السياق نظرية غريبة المنبت، ولا علاقة لها بعلمائنا ولا بتراثنا، فإنني أرى أن ذلك أمر مغلوط ؛ والسبب أن وعي التراث والعودة إليه يظهر وجهاً لغوياً مشرقاً عند العلماء العرب، وأن لهم السبق في كثير من المجالات

والسياق هو القاعدة الداخلية التي ينحرف عنها الأسلوب، إذ تتحدد أي ظاهرة أسلوبية بكونها خروجاً أو تحولاً عن النمط السائد في السياق، ويمكن تحديد هذه الظاهرة الأسلوبية في نص ما بموضوعية عن طريق رصد نقاط التحول في مسار السياق في هذا النص، وتتبع أهمية السياق من خلال الدور الذي يؤديه في فهم المعنى ذلك أن الكلمة تكتسب مدلولها من السياق وتتغير هذه الدلالة بتغيره وإن كان هذا لا ينفي وجود دلالات للكلمة المفردة لو خلت منها لبطلت وظيفتها في السياق، ومن ثم يأتي السياق ليحدد أحد تلك الوظائف الدلالية للكلمة، كما يظهر أثره في البناء التركيبي للنص وترابط عناصره وأجزائه معجمياً ودلالياً .

وقد حظي كتاب الله بدراسات كثيرة، وأبحاث وفيرة، وما زالت تنهل من مصدره. ومنها ما تناول الجانب الدلالي والأسلوبي والنحوي في ألفاظه ومواضيعه المتصلة بعلوم العربية. ومما لا سبيل إلى الشك فيه أن القرآن الكريم كتاب العربية الأول في متانة الأسلوب، وسمو المعنى، وقوة الدلالة، ويمثل نهجه الخالد بحراً زاخراً بالظواهر

الأسلوبية والقضايا اللغوية، وكنت ولا أزال أجد نفسي تدفعني لدراسة كتاب الله عز وجل تلاوة ودرساً ؛ وهذا ما دفعني إلى اختيار أثر السياق في اختيار المفردات والتراكيب في القرآن الكريم "حادثة الإفك أنموذجاً " من خلال آيات سورة النور(١١-٣٦)، تلك الحادثة التي تعد من أخطر الشائعات التي روجت في المجتمع المسلم، وكان القصد منها النيل من النبي صلى الله عليه وسلم ومن أهل بيته.

وتأتي أهمية هذه الدراسة من أهمية الآيات ذاتها بالنظر إلى المناسبة التي جاءت فيها والموقف الذي نزلت من أجله، فهي من حيث موضوعها تبين أحكام الله حول جرائم العرض باختلاف درجات مرتكبيها ونوعياتهم وفي تقرير ذلك العلاج السريع على الواقع العملي الحي (حادث الإفك) الذي يعتبر مثالاً حياً واقعياً ونموذجاً من القذف العام حتى يتسنى لهذا البيان والحكم وذلك العلاج الناجع التمكن في نفوس المستهدفين بهذا التشريع لارتباطه الوثيق بهذا الواقع.

كما أنها من ناحية أخرى تظهر أثر السياق على تنوع صوره في الترجيح بين المعاني واستنباط الأهداف والمقاصد التشريعية للنص القرآني، فقد اعتنى المفسرون بجوانب سياقية في تفسيرهم، بل ويتكئون على السياق بمختلف صوره في الترجيح بين المعاني.

ثانياً : طبيعة مشكلة البحث:

تهتم هذه الدراسة بآيات حادثة الإفك في سورة النور، وإبراز دور السياق – بقسميه المشهورين في النظرية السياقية وهما: السياق اللغوي، والسياق المقامي – في الترجيح بين المعاني، إذ يبين أثرهما الواضح في الترجيح بين الدلالات من خلالهما، ومراعاة سياق المقصد، وكذا عناصر سياق الحال، وغير ذلك من الأمور التي تندرج ضمن النظرية السياقية، فتقوم هذه الدراسة ببيان أثر السياق في توجيه دلالة المفردة، ودوره في تحديد الدلالة الوظيفية للوحدات التركيبية داخل السياق .

وعليه؛ فإن الدراسة ستشمل الجانب المتعلق بدلالة السياق، وأهميتها، وعناصرها، وأثر ذلك في الكشف عن المعنى والتركيب في آيات حادثة الإفك من سورة النور .

ثالثاً: أهـداف البحث :

١- تحديد مفهوم السياق لدى البلاغيين والتفسيرين والأصوليين.
٢- التنبيه على دور السياق في توجيه المعنى وتحديد دلالات النص.
٣- بيان نوعي السياق (اللفظي والمقامي) وما لهما من دور في إيضاح الجوانب الدلالية للنص.
٤- توضيح دور سياق المقصد في تفسير آيات حادث الإفك.

رابعاً : منهج البحث :

- تعتبر الدراسة منهجاً جديداً في التفسير يعتمد على علم عظيم متعلق بالتفسير وهو السياق، حيث أفاد الباحث من الدراسات اللسانية الحديثة في مجال نظرية السياق وعلم النص وتحليل الخطاب مع مراعاة مناسبة ذلك لطبيعة النص القرآني.

- الخروج بمفهوم دقيق يشمل عناصر السياق اللغوي والحالي، وقد تم قراءة الآيات وتحليلها في ضوء هذا المفهوم الشامل للسياق .

- الانطلاق من النص القرآني وبناء المنهج والنتائج على ذلك بحيث يكون النص حكماً وفيصلاً لاستخلاص المعايير دون إخضاع النص للقواعد والمعايير الجاهزة .

خامساً : أهمية البحث :

وتأتي أهمية هذه الدراسة من أهمية الآيات ذاتها بالنظر إلى المناسبة التي جاءت فيها والموقف الذي نزلت من أجله، فهي من حيث موضوعها تبين أحكام الله حول جرائم العرض باختلاف درجات مرتكبيها ونوعياتهم، وفي تقرير ذلك العلاج السريع

على الواقع العملي الحي (حادث الإفك) الذي يعتبر مثالاً حياً واقعياً ونموذجاً من القذف العام ؛حتى يتسنى لهذا البيان والحكم وذلك العلاج الناجع التمكن في نفوس المستهدفين بهذا التشريع لارتباطه الوثيق بهذا الواقع .

كما أنها من ناحية أخرى تظهر أثر السياق على تنوع صوره في الترجيح بين المعاني واستنباط الأهداف والمقاصد التشريعية للنص القرآني، فقد اعتنى المفسرون بجوانب سياقية في تفسيرهم، بل ويتكئون على السياق بمختلف صوره في الترجيح بين المعاني .

سادساً : فروض البحث :

هل للسياق أثر في اختيار المفردة القرآنية لآيات حادثة الإفك ؟ وهل للسياق أثر في اختيار البناء التركيبي لآيات حادثة الإفك ؟ بمعنى هل للسياق دور بارز في فك الغموض الذي قد يعتري بعض جوانب النص سواء على مستوى اللفظ أو على مستوى التركيب ؟ وهل عملية البحث عن تماسك النص تلزمنا بالضرورة العودة إلى عناصر لغوية وأخرى غير لغوية ؟

سابعاً : محتويات البحث :

يحتوي البحث على مقدمة وتمهيد ومحورين نوضحها فيما يلي :

مقدمة : وفيه يتم بيان أهمية الدراسة وهدفها والتساؤلات التي طرحتها .

تمهيد : مفهوم السياق وأهميته وأقسامه :

١- مفهوم السياق :

- التعريف اللغوي - التعريف الاصطلاحي

٢- أهمية السياق ودوره في تحقيق التماسك النصي عند :

علماء اللغة القدماء، والنحاة، والبلاغيين، والأصوليين والمفسرين، وعلماء اللغة المحدثين .

٣- أقسام السياق :

-السياق اللغوي

-السياق الخارجي

-السياق الثقافي

-سياق المقصد

المحور الأول: أثر السياق في اختيار المفردة القرآنية في حادثة الإفك :

مفردة الإفك

مفردة العصبة

مفردة الخير \ الشر

مفردة الإثم

مفردة الكبر

مفردة الظن

مفردة جاء \ أتى

مفردة أفضتم

مفردة التلقي

مفردة البهتان

مفردة المثل

مفردة الفحشاء

مفردة المنكر

مفردة زكى

مفردة يأتل

مفردة الفضل

مفردة الرمي

مفردة الدين

مفردة الخبيثون \ الطيبون

المحور الثاني : أثر السياق في اختيار التراكيب في حادثة الإفك :

الأسلوب الإنشائي، وأسلوب التوكيد، وأسلوب الشرط، والحذف، وأسلوب التكرار، والتقديم والتأخير .

الخاتمة والتوصيات : وفيها أهم نتائج البحث والتوصيات .

ثامناً : الدراسات السابقة :

سعى عدد من الباحثين المعاصرين إلى تأصيل لهذه النظرية ومنهم على سبيل المثال لا الحصر

عبد الفتاح البركاوي في كتابه : "دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث"

تمام حسان في معظم كتبه ومنها" : اللغة العربية معناها ومبناها "

: "الأصول "

ردة الله بن ردة الطلحي في كتابه " : دلالة السياق "

عيد بلبع في كتابه " : السياق وتوجيه دلالة النص "

المثنى عبد الفتاح محمود في كتابه " : نظرية السياق القرآني دراسة تأصيلية دلالية نقدية".

تمهيد

مفهوم السياق وأهميته وأنواعه

مفهوم السياق وأهميته :

جاء في لسان العرب في مادة سوق " يقول السوق : معروف . ساق الإبل وغيرها يسوق سوقاً وهو سائق وسوّاق ... وقد انساقت وتساوقت الإبل تساوقاً إذا تتابعت ... وساق إليها الصداق والمهر سياقاً وأساقه، وإن كان دراهم أو دنانير ؛ لأن أصل الصداق عند العرب الإبل وهي التي تساق، فاستعمل ذلك في الدرهم والدنانير وغيرها، وساق فلان من امرأته أي أعطاها مهرها والسِّياق المهر ... قيل للمهر سوق ؛ لأن العرب كانوا إذا تزوجوا ساقوا الإبل والغنم مهراً ؛ لأنها كانت الغالب على أموالهم، ووضع السوق موضع المهر وإن لم يكن إبلاً وغنماً ... وأساقه إبلاً أعطاه إياها يسوقها ... وساق بنفسه سياقاً نزع بها عن الموت تقول رأيت فلاناً يسوق سووقاً أي ينزع نزعاً عند الموت ... يقال فلان في السياق أي في النزع للسياق نزع الروح وأصله سواق فقلبت الواو ياء بكسرة السين وهما مصدران من ساق يسوق" [1].

وورد عند ابن فارس إشارة إلى السياق في مادة (سوق) يقول :" السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حدود الشيء يقال : ساقه يسوقه سوقاً، والسّيقة : ما استيق من الدواب. ويقال: سقت إلى امرأتي صداقها، وأسقته سياقاً، أي أعطيتها المهر "[2] .

ويقول الأزهري في تهذيب اللغة " : رأيت فلاناً يسوق سوقاً، أي ينزع نزعاً يعني يموت ... يقال يسوق نفسه ويفيض نفسه وقد فاضت نفسه وأفاضه الله نفسه، ويقال

---

[1] – لسان العرب: لأبي الفضل جمال الدين بن مكرم بن منظور النصاري، دار صادر بيروت– لبنان، ط١، ٢٠٠٠م، ١٠/١٦٦

[2] – معجم مقاييس اللغة : لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر ، ط١ ، ١٩٧٩م ، ٣/٩٠

فلان في السياق أي : في النزع ... وساق فلان من امرأته، أي أعطاها مهرها وساق مهرها سياقاً، والسياق: المهر "[٣] .

غير إن السياق يدل عند الزمخشري على معنى مجازي متمثل بالحديث والتتابع في الكلام حيث يقول: "ومن المجاز تساوقت الإبل: تتابعت، وهو يسوق الحديث أحسن سياق و" إليك سياق الحديث " وهذا الكلام مساقه إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقه: على سرده "[٤] .

ويعلق الدكتور تمام حسان على هذه المعاني اللغوية الدالة على (التتابع والإيراد) بقوله : إن " المقصود بالسياق : التوالي ثم ينظر إليه من ناحيتين : الناحية الأولى : توالي العناصر التي يتحقق بها التركيب والسبك، والسياق من هذه الناحية يسمى (سياق النص). الناحية الثانية : توالي الأحداث التي صاحبت الأداء اللغوي وكانت ذات علاقة بالاتصال، ومن هذه الناحية يسمى السياق (سياق الموقف) "[٥] .

إن السياق هو جوهر المعنى المقصود في أي بناء نصي أو كلامي فهو لا يلقي الضوء على الكلمة والجملة فقط وإنما على النص المكتوب والكلام المجمل من خلال علاقة المفردات بعضها ببعض في أي سياق من السياقات المختلفة فهو ": بناء نصي كامل من فقرات مترابطة في علاقته بأي جزء من أجزائه، أو تلك الأجزاء التي تسبق أو تتلو مباشرة فقرة أو كلمة معينة ودائماً ما يكون السياق مجموعة من الكلمات وثيقة الترابط بحيث يلقي ضوء لا على معاني الكلمات المفردة فحسب بل على معنى

---

[٣] – تهذيب اللغة: لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الدر المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٧م، ٨٨٤/٩ .

[٤] – أساس البلاغة: لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، د.ط، ١٩٨٢م، ٢٣٢/١ .

[٥] –قرينة السياق: د. تمام حسان "بحث مقدم من الكتاب التذكاري لاحتفال بالعيد المئوي لكلية دار العلوم"، مطبعة عبير الكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م، ٣٧٥/١ .

وغاية الفقرة بأكملها "[٦] .

ومن هنا تتضح أهمية السياق في الكشف عن المعنى وإزالة الغموض فيه وهذا ما أشارت إليه المعاجم المتخصصة في المصطلحات الأدبية وعلوم اللغة واللسانيات، إذ عرفته بأنه " التركيب أو السياق الذي ترد فيه الكلمة، أو يسهم في ترديد المعنى المقصود لها "[٧].

وعرفه معجم علم اللغة النظري بقوله: "السياق (context) البيئة اللغوية المحيطة بالفونيم أو المورفيم، أو الكلمة، أو الجملة. والنظرية السياقية (contextual meaNing) هي تفسير معنى الكلمة حسب السياق الذي تقع فيه [٨] .

وعرّف قاموس اللسانيات لـ (جون دي بوا) السياق بأنه" : المحيط؛ أي الوحدات التي تسبق أو تلحق وحدة محددة ، ويسمى بالسياق الشفوي، أو هو مجموع الشروط الاجتماعية التي يمكن أن تؤخذ بعين الاعتبار لدراسة العلاقات القائمة بين السلوك الاجتماعي والسلوك اللساني. وغالباً ما تحدد هذه العلاقات بالسياق الاجتماعي لاستعمال اللغة، ونحدده أيضاً بقولنا: (المقام)، وهو مجموع المعطيات المشتركة بين المتكلم والمستمع في مقام ثقافي ونفسي لتجارب كل منهما " [٩] .

فالسياق يلعب دوراً كبيراً في جلاء النص وإبرازه وتوجيه دلالته فهو " مجموع الوحدات اللسانية التي تحيط بعنصر معين داخل سلسلة الخطاب وتؤثر فيه " [١٠] .

---

[٦] – معجم المصطلحات الأدبية: إبراهيم فتحي، دار شرقيات للنشر والتوزيع ، ط١ ، ٢٠٠٠م ، باب اللوق ، القاهرة ، حرف(س) ص٢٠١ .

[٧] – معجم اللسانيات الحديثة: سامي عياد حنا، كريم حسام الدين، نجيب جرجس، ص ٢٨ .

[٨] –معجم علم اللغة النظري: د. محمد علي الخولي، مكتبة لبنان– بيروت، ط١، ١٩٨٢م، ص٥٧.

[٩] – السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة: علي آيت أوشان، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٠م، ص٣١ .

[١٠] – معجم علم اللغة النظري : ص٥٧ .

ويترتب على ذلك أن هناك سياقين يتحكمان في توجيه دلالة النص ولا يشترط أن يجتمعا فيه وهما: سياق لغوي، سياق مقامي يضم جميع الظروف والوقائع غير اللغوية، التي تحيط بالنص عند شرحه من أجل توجيه معناه.

وعلماء اللغة قديماً رأوا أن للسياق (اللغوي والمقامي) أهمية في الوصول إلى المعنى، فالسياق عنصر مهم من عناصر تحديد المعنى عند المعجميين والذي يقرأ بعض المعاجم " لا يجد شروحاً للألفاظ وتبياناً لمعانيها إلا من خلال أمثلة سياقية من القرآن، أو الحديث، أو الأمثال والأشعار، وعلى هذا نقول : إن المعاجم نفسها لا تقوم إلا على شواهد تبين معنى اللفظ من السياق "[١١] .

فقد أدرك اللغويون العرب أن العمل المعجمي" إنما هو رصد للغة في حركاتها الاجتماعية بملاحظة السياق الذي تجري فيه، فتنوع استعمالات الكلمة وتعدد أبنيتها قياساً إلى وظيفتها السياقية وطبيعة مستعمليها وحاجتهم ومقاصدهم، كلها تستند إلى سياق محدد ومقام معين يحيط بها ويوجه استعمالها" [١٢] .

كما أشار إلى ذلك كل من الثعالبي في كتابه "فقه اللغة وسر العربية " وأبي هلال العسكري في كتابه " الفروق في اللغة "، وابن سيده في معجمه "المخصص" والترمذي في كتابه "الفروق ومنع الترادف" فإن هؤلاء جميعاً وغيرهم أشاروا إلى أن "بعض الكلمات التي تنتمي إلى حقل دلالي واحد تختلف فيما بينها في درجة التعبير عن المعنى، وإن كانت علاقة مفهومية تقوم بينها فإن في الواحدة منها جزءا المعنى لا

---

[١١] – الاشتراك اللفظي في القرآن، بين النظرية والتطبيق: محمد نور الدين المنجد، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٩٩م، ص٤٠ .

[١٢] – علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي: د. هادي نهر، دار الأمل، الأردن، ط١، ٢٠٠٧م، ص٢٨٧ .

يوجد في الأخرى، والسياق هو الذي يبين ذلك."[١٣] وعليه فإن المعنى المعجمي "يتصف بالتعدد والتنوع والاحتمال، والسياق هو الذي يحدد المعنى المناسب "[١٤].

كما أن النحاة الأوائل اهتموا بالسياق لبيان مجرى الكلام، وإظهار المعنى الذي يريده المتكلم، فيرد عندهم استعمال لفظ السياق بمعناه اللغوي في توصيف بعض الأساليب نحو قوله: النكرة سياق النفي نعم، أو استعمال ألفاظ عدة عند ذكر دليل الحذف الجائز والتقديم في الأبواب النحوية من مثل قولهم :بدليل لفظي أو معنوي ، أو قرينة السياق أو القرينة اللفظية أو القرينة المعنوية أو مراعاة حال المتكلم أو المخاطب أو الموقف بأكمله مما يعني وعيهم بسياق النص[١٥].

فسيبويه يرى أن قرينة المقام هي التي سوغت قبول الكلام واستحسانه، وأن القرينة اللفظية لها دور في إظهار المعنى الذي يريده المتكلم، وعبارته في بيان الأصل الذي يجري عليه التقديم والتأخير مشهورة، فقد قال:" كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم "[١٦].

---

[١٣] – السابق : ص ٢٨٧

[١٤] – الأصول، دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب: د.تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م، ص٢٩٢ .

[١٥] – انظر: دلائل الإعجاز: للإمام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٥، ٢٠٠٤م، ص١٨٠ / الكتاب: لسيبويه، أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ٧٤/١ ، ٢٨٠-٢٩٧ ، ٨٠/٢ ، ٨١ / مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: لأبي محمد عبد جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري، تحقيق: عبد اللطيف محمد الخطيب، الكويت، ط١، ٢٠٠٠م، ص٦٥٣- ٦٦٣ . الخصائص: لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، ط٤، ١٩٩٩م، ٢٤٥/١-٢٨٥، ٣٦٠/٢- ٣٧٠ .

[١٦] – الكتاب : ٣٤/١ .

أما ابن جني فقد اهتم بسياق الحال وتحليل الحدث الكلامي : صوتياً، وصرفياً، ونحوياً، من أجل كشف الدلالة اللغوية، كما أنه تكلم عن العلاقة بين الحذف وسياق المشاهدة، أو الحال المتصل بالطريقة التي ينطق بها المتكلم كلامه[١٧] .

وفي موضع آخر يهتم بأثر القرآن الحالية في فهم المعنى، بل عدها أقوى من النقل بالسماع دون المشاهدة، فحال المتكلم وحركة يديه ووجهه وهيئته كل ذلك يؤدي لبيان المراد [١٨] .

والمتتبع لإشارات ابن جني في كتابه الخصائص يجد نفسه أمام دليل قوي على سعة وعيه بأهمية السياق الاجتماعي في الكشف عن المعنى، فهو يقرر أن اللغوي لا ينبغي أن يكتفي بالسماع بل عليه أن يجمع إليه الحضور والمشاهدة ويحيط بظروف الكلام، ويفهم من كلامه هذا أنه لا ينبغي للغوي أن يفسر الكلام اعتماداً على الرواية المسموعة فحسب، وإنما يجب أن يأخذ في اعتباره المقام المحيط بالكلام .

أما ابن يعيش فقد أشار إلى أثر القرينة السياقية في بيان المعنى. وذلك أن المراد من اللفظ الدلالة على المعنى، فإذا ظهر المعنى بقرينة حالية أو غيرها لم يحتج إلى اللفظ المطابق، فهو يقول " : واعلم أن المبتدأ والخبر جملة مفيدة تحصل الفائدة بمجموعهما، فالمبتدأ معتمد الفائدة، والخبر محل الفائدة، فلابد منهما إلا أنه قد توجد قرينة لفظية، أو حالية تغني عن النطق بأحدهما، فيحذف لدلالته عليه، لأن الألفاظ إنما جيء بها لدلالة على المعنى، فإذا فهم المعنى بدون اللفظ، جاز أن لا تأتي به، ويكون مراداً حكماً وتقديراً"[١٩] .

---

[١٧] – الخصائص : ٢/٣٧٠ .

[١٨] – السابق : ١/٢٤٥– ٢٤٦.

[١٩] – شرح مفصل الزمخشري: لموفق الدين، أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش الموصلي، قدم له ووضع هوامشه: د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط١، ٢٠٠١م، ١/٢٣٩.

وتظهر عناية البلاغيين بالسياق من خلال تعريفهم لبلاغة الكلام وهي " مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، والحال هو الأمر الداعي للمتكلم إلى أن يعتبر مع الكلام الذي يؤدي به أصل المراد خصوصية ما، وهو مقتضى الحال"[٢٠] .

ومصطلح الحال الذي أشار إليه البلاغيون "يرادف في أغلب استعمالاته، مصطلحاً آخر هو (المقام)، وكل من المصطلحين يقصد بهما : مجموعة الاعتبارات، والظروف، والملابسات التي تصاحب النشاط اللغوي، ويكون لها تأثيرها – أو ينبغي أن يكون – في ذلك النشاط من خارجه ، بحيث لا تتحدد دلالة الكلمة، أو تتجلى مزاياه إلا في ظلها ، وفي ضوء ارتباطه بها[٢١] " .

فعبارتهم المشهورة " لكل مقام مقال[٢٢] " تؤكد أن السياق أو المقام لديهم له دور كبير في المعنى حيث يتطلب " مقالاً مخصوصاً يتلاءم معه، فالسياق يتضمن داخل التعبير المنطوق بطريقة ما " [٢٣] .

وهذا ما تضمنته صحيفة بشر بن المعتمر الذي نقل عنه الجاحظ قوله " المعنى ليس بشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني

---

[٢٠] – شروح التلخيص للقزويني: لسعد الدين التفتازاني، مطبعة عيسى الحلبي، مصر، ١٩٣٧م، ١/١٢٢، ١٢٣.

[٢١] – علم المعاني في الموروث البلاغي، تأصيل وتقديم: د. حسن طبل، مكتبة الإيمان، المنصورة، ط٣، ٢٠٠٤م، ص١٢، ١٣.

[٢٢] – علم اللغة الاجتماعي، مدخل: د. كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ط٣، ١٩٩٧م، ص٩٧.

[٢٣] – النحو والدلالة مدخل لدراسة النحو الدلالي: محمد حماسة عبد اللطيف، القاهرة، ط١، ١٩٨٣م، ص٩٨.

العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب، وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام مقال"[٢٤].

فالمقام أو الحال من الألفاظ الدالة على السياق عند البلاغيين وهو مجموعة الظروف السياقية المحيطة بالحدث الكلامي (المقام أو الخطاب) والتي تشتمل على علاقة المتكلم بالمخاطب والاعتبارات الخاصة لكل منهما، وموضوع الكلام والغاية منه، والمناسبة وما إلى ذلك .

إن الاستقراء للتراث البلاغي يبين لنا أن المقام يشمل أحوالاً أربعة هي عناصر سياق الكلام :

١-حال المخاطب : وذلك من حيث علاقته بالمتكلم أو بموضوع الكلام، أو من حيث ميوله ومذهبه وثقافته وطبقته الاجتماعية، وهذا ما يقرره بشر بن المعتمر في صحيفته حيث يقول: "ينبغي أن تعرف أقدار المعاني، فتوازن بينها وبين أوزان المستمعين وبين أقدار الحالات فتجعل لكل طبقة كلاما... " [٢٥] .

٢-حال المتكلم : وهو الأساس الأول الذي تتحقق به المخاطبة، فبمقدار تعبير العمل الأدبي عن رؤية المبتدع وتجربته يكون الحكم بالتطابق، ومن ثم يكون الحكم بنجاح هذا العمل.

٣-السياق الداخلي (الخطاب أو الكلام) المقال .

٤-السياق الخارجي (سياق الحال) .

بل إن علمي المعاني والبيان راعتا ما سماه البلاغيون مقتضى الحال أو سياق المقام؛ لأن " الجامع بين هذه العناصر في مفهوم البلاغيين هو المطابقة والمقتضى،

---

٢٤ – البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، ك١، ٢٠٠٢ م، ١٣٦/١ .

٢٥ – السابق : ١٣٨/١ .

والأول لفظي، والآخر عقلي، وفيها إشارة واضحة أن تطابق النص والحال(الموقف) عبر البناء هو شرط البلاغة، وهو شرط يمكننا من القول بأن بناء النص في الفكر البلاغي وظيفي باتجاه المواقف أو القول تأسيساً على أن (لكل مقام مقال). إن البلاغة هي كيفية القول بما يوافق المقام على اتساع ما يمكن أن يعنيه (المقام) وما يشتمل عليه من عناصر " [٢٦] .

أما سياق المقال أو الساق اللفظي فخير من يمثله عبد القاهر الجرجاني ، حيث يربط فصاحة الكلمة بسياقها اللغوي والتركيب الذي قيلت فيه حيث يقول:"وجملة الأمر أنا لا توجب الفصاحة للفظة مقطوعة ومرفوعة من الكلام الذي هي فيه، ولكنا نوجبها لها موصولة بغيرها، ومعلقاً معناها بمعنى ما يليها " [٢٧] .

فقد أدرك الجرجاني أهمية السياق ووضع له نظاماً في نظريته المشهورة " النظم"، فهو يرى أن " النظم موجود في الألفاظ على كل حال ولا سبيل أن يفعل التركيب الذي نزعمه في المعاني ما لم تنتظم الألفاظ، ولم نرتبها على الوجه الخاص " [٢٨] .

ويرى أن أمر " النظم في أنه ليس شيئاً غير توخي معاني النحو في ما بين الكلم، إنك ترتب المعاني أولاً في نفسك، ثم تحذو على ترتيبها الألفاظ في نطقك، وأنا لو فرضنا أن تخلو الألفاظ من المعني لم يتصور أن يجيب فيها نظم أو ترتيب في غاية القوة والظهور "[٢٩] .

ويقول في موضع آخر " فقد اتضح إذن اتضاحاً لا يدع للشك مجالاً أن الألفاظ لا تتفاضل في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما شابه ذلك، مما لا تعلق

---

[٢٦] – دلالة السياق: د.ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي، جامعة أم القرى، ط١، ١٤٢٣هـ، ص٥٨٣ .

[٢٧] – دلائل الإعجاز : ص٣٦٤ .

[٢٨] – السابق: ص٣٤٦

[٢٩] – السابق .

له بصريح اللفظ، ومما يشهد بذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر" [٣٠] .

فالنظم عند عبد القاهر الجرجاني يتجلى في تنسيق الكلمات في تتابع مفض إلى معنى بين قصده المتكلم، إن هذا التتابع يشمل العبارة والجملة والنص، وهو معنى بالسياق في علاقة الألفاظ بالمعاني، وعلى ذلك فالسياق العام هو الذي يحكم على اللفظة بالفصاحة أو بخلافها " فالسياق هو نقطة البدء، بحيث لا يمكن وجود كيان للتعبير إلا من خلاله، وحينئذ من الواجب رصد السياق، ثم البحث عن الألفاظ وعلاقتها فيه ثانياً" [٣١] .

فالسياق الذي ترد فيه الكلمة هو الذي يحدد معناها، واللفظ يكتسب معناه ودلالته من التركيب .

وللمعنى عند عبد القاهر الجرجاني أبعاد ثلاثة :

أولها: معاني اللفظة المفردة (المعنى المعجمي) .

ثانيها: طرق التعليق بين الكلم وربطها وهي المعاني النحوية التي تفرز عبر أحكام تنظيم الجملة المعينة .

ثالثها : الإبانة عما في النفس أو البيان، أو تمام الدلالة وهو ما يسمى بـ(المعنى الدلالي) الذي يعتمد على المعنى المقالي (الصوتي والصرفي والنحوي)، والمعنى الاجتماعي الذي هو شرط لاكتمال المعنى الدلالي وفهمه [٣٢] .

---

٣٠ – السابق .

٣١ – البلاغة والأسلوبية: د. محمد أحمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م، ص٢٤١ .

٣٢ – السابق: ص٢٤٢ .

أما غالب أقوال الأصوليين والمفسرين في السياق إنما هو على غرض الكشف عن المراد من كلام الله، أو الكشف عن المعنى أوالترجيح بين المعاني في القرآن الكريم، فهم لا يرون أن فهم النصوص الشرعية من قرآن وسنة، وتوجيه دلالتها، متوقف في كثير من الأحيان على ما يحيط بها من عناصر سياقية تحيط بالموقف الكلامي، حيث يزول الإشكال ويتعين المحتمل، ويخصص العام، ويفسر المبهم .

كما أنهم أبرزوا أهمية السياق في فهم دلالة النص القرآني وترجيحها والوصول إلى المعنى الذي يكمن في النصوص الشرعية، يقول ابن القيم : " السياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهذا من عظم القرآن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله فقد غلط في نظره، وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله تعالى : " ذق إنك أنت العزيز الكريم " كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير [٣٣] " .

ويقول الزركشي : " ليكن محط نظر المفسر مراعاة نظم الكلام الذي سيق له" [٣٤].

ويرجع ابن دقيق العيد السياق إلى مراد المتكلم وهو الغرض والمقصود، فيقول :" أما السياق والقرائن، فإنها الدالة على مراد المتكلم من كلامه " [٣٥].

ويرى الزركشي أن السياق هو الغرض، والنظم تاج للسياق ودليل عليه فيقول ": ليكن محط نظر المفسر مراعاة نظم الكلام الذي سيق له وإن خالف أصل الوضع

---

[٣٣] – بدائع الفوائد: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي (المشهور بابن القيم)، تحقيق: هشام عبد الحميد عطا وزميليه، دار نزار الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٩٩٦م، ٨٥١/٤ .

[٣٤] – البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت– لبنان، ط١، ١٩٥٧م، ٣١٧/١ .

[٣٥] – إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام: لتقي الدين بن دقيق العيد، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة السنة، القاهرة، ط١، ٢١/٢.

اللغوي لثبوت التجوز، ولهذا ترى صاحب الكشاف يجعل الي سيق له الكلام معتمداً حتى كأن غيره مطروح " [٣٦] .

ويتضح مما سبق أن مراعاة السياق وسيلة مهمة من وسائل الكشف عن وحدة النص عند المفسرين، فكلمة سياق في تعبيرهم " تطلق على الكلام الذي خرج مخرجاً واحداً، واشتمل على غرض واحد، مع ملاحظة أن الغرض من الكلام، أو المعاني المقصودة بالذات هي العنصر الأساسي في مفهوم السياق [٣٧] " .

وقد اهتم علماء التفسير عند تفسيرهم للقرآن الكريم ببيان مجموعة من العناصر منه دور الصوت والصيغة والكلمة والتركيب والظروف المحيطة بالنص، كأسباب النزول ومكان النزول وزمانه والمخاطَب والمخاطِب، لما لكل عنصر من هذه العناصر دور في تحديد المعنى الدلالي للنص القرآني وهي عناصر في معظمها تأتي وفق الاعتبارات اللغوية (سياق النص) وفق الاعتبارات الخارجية (سياق الموقف).

كما اهتم الأصوليون – أيضاً – بالسياق اهتماماً كبيراً باعتباره وسيلة من وسائل فهم الخطاب وتحديد المعنى المفهوم بالتركيب، حيث يختلف دلالته في تركيب عنه في تركيب آخر، والسياق هو الذي يحدد ذلك ..

وقد ظهرت عند الأصوليين إشارات تبين اهتمامهم بالسياق منها ما " ظهر لديهم من تمثل واضح لعناصر السياق اللفظية والاجتماعية وآثارها في تحديد المعنى، حيث يرون أن اللغة ظاهرة اجتماعية، فإذا كان للألفاظ معان عرفية، وإذا كانت الدلالة الحقيقية تابعة لقصد المتكلم وإرادته ؛ فإنه لابد للكشف عن المعنى من معرفة قصد

---

[٣٦] – البرهان في علوم القرآن : ٣١٧/١ .

[٣٧] – دلالة السياق: ص٥١ .

المتكلم بالقرائن المختلفة، ذلك أن دلالات الألفاظ ليست لذواتها بل هي تابعة لقصد المتكلم وإرادته"[٣٨].

وذكر الإمام الشافعي كلاماً واضحاً عن أهمية السياق في توجيه المعنى فيقول: "إنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها، وكان ما تعرف من معانيها اتساع لسانها، وأن فطرته أن يخاطب الشيء عاماً ظاهراً يراد به غير العام الظاهر، ويستغني من أول هذا من عن آخره ، وعاماً ظاهراً يراد به الخاص ، وظاهراً يعرف من سياقه أنه يراد به غير ظاهره ، فكل هذا موجود في أول الكلام أو وسطه أو آخره " [٣٩] .

ويستعمل الشاطبي لفظ " المساق " ويعني به السياق بنوعيه : سياق النص ، وسياق الموقف؛ إذ يقول: " المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل، وهذا معلوم في علم المعاني والبيان، والذي يكون على بال من المستمع والمتفهم الالتفات إلى أول الكلام وآخره بحسب القضية، وما اقتضاه الحال فيها، لا ينظر في أولها دون آخرها، ولا في آخرها دون أولها...ولا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف" ... [٤٠].

---

[٣٨] – دراسة المعنى عند الأصوليين: د. طاهر حمودة، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط١، ١٩٨١م، ص٢٢٧ .

[٣٩] – الرسالة: للإمام محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص٦٢، ٦٣ .

[٤٠] – الموافقات في أصول الشريعة: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، السعودية، ط١، ١٩٩٧م، ٣/٤١٣، ٤١٤ .

ومما يدل – أيضاً– على إدراكهم للسياق بأنواعه، ودوره في الكشف عن المعنى بشكل دقيق ، وإشارتهم لعناصره اللغوية والاجتماعية ما يقوله الإمام الشافعي عن الرسائل المعينة على فهم الخطاب الشعري من أن" طريق فهم المراد تقدم المعرفة بوضع اللغة التي بها المخاطبة ، ثم إن كان نصاً كفى معرفة اللغة، وإن تطرق إليه احتمالاً، فلا يعرف المراد منه حقيقة إلا بانضمام قرينة إلى اللفظ.والقرينة إما لفظ مكشوف ، وإما إحالة على دليل العقل، وإما قرائن أحوال من إشارات ورموز وحركات وسوابق ولواحق، لا تدخل تحت الحصر والتخمين يختص بإدراكها المشاهد لها ، فينقلها المشاهدون من الصحابة إلى التابعين بألفاظ صريحة ، أو مع قرائن من ذلك الجنس أو من جنس آخر، حتى توجب علماً ضرورياً بفهم المراد أو توجب ظناً،... فكل ما ليس له عبارة موصوفة في اللغة فتتعين فيه القرائن" [٤١] .

فالسياق يشمل القرائن اللغوية وغير اللغوية كافة للإسهام في عملية الفهم وهذا ما أدركه الأصوليون .

ومن خلال الإشارات السابقة يتبين لنا أن فكرة السياق فكرة قديمة قد عالجها علماؤنا القدماء في تصنيفاتهم كافة وعبروا عنها بألفاظ أخرى ، مثل:مقتضى الكلام ، فحوى الكلام ، القرينة، المعنى العام، ظاهر الحديث، الموقف، المقام، المقال، النظم، الاستعمال، نسق الكلام، المساق، السبب، ونحو هذه المصطلحات التي يكون الاعتماد فيها على معنى النص .

وقد احتلت دراسة السياق مجالاً واسعاً عند علماء اللغة المحدثين لأهميته في الكشف عن المعنى ودوره في تنوع الدلالة ، ويعد العالم الإنجليزي (فيرث) رائد نظرية السياق، فقد كان يرى أن دلالة المفردة لا تتكشف إلا بعد وضعها أو تسييقها في

---

[٤١] – المستصفى من علم الأصول: لأبي حامد بن محمد الغزالي، تحقيق: د. محمد بن سليمان الأشقر، مؤسسة الرسالة، بيروت– لبنان، ط١، ١٩٩٧م، ٢٣/٢ .

تراكيب لغوية، حيث يقول" : المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية ، أي وضعها في سياقات مختلفة " [٤٢] .

فإن" معظم الوحدات اللغوية تقع في مجاورة وحدات أخرى ، وأن معاني هذه الوحدات لا يمكن وصفها أو تحديدها إلا بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها[٤٣] " .

فالمعنى في نظر (فيرث) نتيجة علاقات متشابكة متداخلة، فهو ليس وليد لحظة معينة لما يصاحبها من لون وصورة، ولكنه أيضاً حصيلة المواقف الحية التي يمارسها الناس.

إن (فيرث) " يجعل المعنى سهل الانقياد للملاحظة، والتحليل الموضوعي، وتعود هذه الملاحظة إلى أن فيرث لم يخرج في تحليله اللغوي عن دائرة اللغة، فنجا من النقد الموجه إلى الاتجاهات الإشارية والتصويرية والسلوكية...وكذلك ابتعد عن فحص الحالات المعقدة الداخلية التي يصعب تفسيرها ومعالجة الكلمات باعتبارها أحداثاً وأفعالاً وعادات تقبل الموضوعية والملاحظة في حياة الجماعة المحيطة بنا " [٤٤] .

إن هاتين الميزتين: دراسة اللغة وفق العلاقات الداخلية من جهة ، وربطها بحياة الجماعة "هما من أهم النتائج التي يقصدها علم اللغة الحديث بوصفة علماً وصفياً لا معيارياً، وبوصفه علماً ينظر في الوظيفة اللغوية من جهة أخرى" [٤٥] .

ويقسم فيرث المعنى إلى خمس وظائف أساسية مكونة له وهي : –

الوظيفة السياقية

---

[٤٢] – علم الدلالة: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨م، ص٦٨ .

[٤٣] – السابق: ص٦٩ .

[٤٤] – السابق: ص٧٣ .

[٤٥] – دلالة السياق: ص١٩٥.

الوظيفة المعجمية

الوظيفة الصرفية

الوظيفة التركيبية

الوظيفة الدلالية: وهي التي تحقق في (سياق الموقف) [٤٦].

وبناء علة ذلك فإن" التعرف على معنى كلمة أو عبارة تقتضي من تحليلها تحليلاً لغوياً كاملاً على مستويات التحليل اللغوي: الصوتي، والصرفي، والنحوي، والمعجمي، والدلالي، أي النظر إلى استعمالها في سياقات مختلفة " [٤٧] .

ومن هنا فإن العلاقة بين العناصر اللغوية والسياق الاجتماعي هي التي تحدد المعنى لدي فيرث، بحيث تتحدد معاني تلك العناصر، وفقاً لاستعمالها في المواقف الاجتماعية المختلفة.

وهذا ما دعا الدكتور كمال بشر إلى أن يقول: " كان فيرث منطقياً مع نفسه ومبادئه، حين جعل فكرة (السياق) أو ما سميناه نحن ب (المسرح اللغوي) أساس نظرته في التحليل اللغوي، فعنده أن الكلام ليس ضرباً من الضوضاء يلقى في فراغ، وإنما مدار فهم الكلام، والقدرة على تحليله ، إنما يكون بالنظر إليه في إطار اجتماعي معين سماه السياق"[٤٨] .

ويرى أولمان أن" النظرية السياقية إذا طبقت بحكمة تمثل الحجر الأساس في علم المعنى[٤٩] " كما يرى أن السياق يتعدى الجملة أو العبارة التي أبعد من ذلك إلى سياق

---

[٤٦] – المعنى وظلال المعنى، أنظمة الدلالة في العربية: د. محمد محمد يونس علي ، دار المدار الإسلامي، بيروت– لبنان، ط٢، ٢٠٠٧م ص١١٩، ١٢٠.

[٤٧] – دراسات في علم اللغة : د. كمال بشر، ١٧٥/٢

[٤٨] – التفكير اللغوي بين القديم والجديد: د.كمال بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، د.ت، ص١٣١ .

[٤٩] – دور الكلمة في اللغة: ستيفن أولمان، ترجمة: كمال بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، د.ت، ص٣٢ .

النص، فهو يرى أن السياق ينبغي أن يشمل الكلمات والجمل الحقيقية السابقة واللاحقة بل القطعة كلها أو الكتاب كله كما يشمل بوجه من الوجوه ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات ، والعناصر غير اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تنطق فيه"[٥٠] .

ويرى (فندريس) أن السياق له أهمية كبيرة في تحليل النصوص الأدبية فيقول: "الذي يعين قيمة الكلمة في كل الحالات إنما هو السياق ، إذ إن الكلمة توجد في كل مرة تستعمل فيها في جو يحدد معناها تحديداً مؤقتاً، والسياق هو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة بالرغم من المعاني المتنوعة التي في وسعها أن تدل عليها"[٥١] .

وبناء على ما سبق يتضح عناية نظرية السياق بالجانب الاجتماعي للمعنى، بل إنه ليعد في رأي أصحاب هذه النظرية شرطاً لاكتمال المعنى الدلالي الأكبر .

كما يتضح أن السياق عند أصحاب هذه النظرية ينقسم إلى قسمين يتحكمان في الاستعمال الفعلي للكلمة وهما:

- سياق المقال: وهو السياق اللغوي الداخلي.
- سياق المقام: وهو سياق الموقف أو الحال وهو يمثل البيئة التفاعلية بين المتحدث والمخاطب.

ولقد تحمس لهذه النظرية عدد من اللغويين المحدثين أمثال: الدكتور تمام حسان، والدكتور كمال بشر، والدكتور إبراهيم أنيس، وغيرهم.

أنواع السياق :

يقسم علماء اللغة المحدثين في دراساتهم المختلفة السياق إلى عدة أنواع منها : السياق اللغوي (سياق المقال)، وسياق الموقف (سياق المقام)، والسياق العاطفي،

---

٥٠ – السابق: ص٥٥ .

٥١ – علم الدلالة: ص٧٤ .

والسياق الثقافي، والسياق السببي، والسياق التاريخي، والسياق المقاصدي، والسياق الموضوعي الإدراكي ... [٥٢]

ومنهم من يختصرهم في نوعين رئيسيين هما : السياق اللغوي، وسياق الموقف، ولكن الدراسة ستركز على الأنواع التالية :

١- السياق اللغوي :(Linguistic context) :

ويقصد به سياق المقال أو السياق الداخلي الذي ينتج عن ترابط الأصوات فيما بينها لتوليد الكلمات والكلمات فيما بينها لتشكيل الجمل والجمل فيما بينها لتشكيل النص، ويتعلق باللغة وتراكيبها من حيث موقع الكلمة بين أخواتها والهيئة التي ائتلفت فيها الكلمات مع بعضها ، ويكمن دوره في تحديد معاني الكلمات وإزالة اللبس عنها وإبعاد المعاني الأخرى التي تحتملها الكلمة في سياق آخر فـ" هو الذي يعطي الكلمة أو العبارة معناها الخاص في الحديث أو النص، فهو يزيل اللبس من الكلمة " [٥٣]

أو هو مجموعة من العناصر المكونة للحدث اللغوي، صوتية، صرفية، ومعجمية، ونحوية [٥٤] ؛ لذا يحتاج الباحث إلى الوقوف على مستويات الكلام اللغوية ، والتمكن من تلك الأدوات للوقوف على ذات الكلمة وأهميتها وتوضيح معناها النهائي خاصة في القرآن الكريم وهذا ما أشار إليه د. تمام حسان حيث يقول: " السياق كالطريق لابد له من معالم توضحه. ولاشك أن مباني التقسيم وما تبدو فيه من صيغ صرفية

---

[٥٢] – علم الدلالة والنظريات الدلالية الحديثة: حسام البهنساوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م، ص٧٠ .

وانظر علم اللسانيات الحديثة : ص٥٥١ .

[٥٣] – الخطاب القرآني، دراسة في العلاقات بين النص والسياق: د. خلود العموش، عالم الكتب الحديث، أربد– الأردن، ط١، ٢٠٠٩م ، ص٢٦ .

[٥٤] – دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث: د. عبد الفتاح عبد العليم البركاوي، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٩٩١م، ص٣٠.

وصور شكلية، وكذلك مباني التعريف وما تبدو به من لواصق مختلفة، تقدم قرائن مفيدة جداً في توضيح منحنيات هذا الطريق " [٥٥] .

ومن هنا نستفيد أن الدلالة السياقية يمكن الوصول إليها إما مباشرة من خلال السياق، أو بطريقة غير مباشرة من خلال القرائن، ومن هنا لا يمكن القول بأن السياق هو وحده القادر على الإفصاح عن المعنى الدلالي بل كل ما يحتويه يشارك في الفهم الدلالي ..

٢- سياق الموقف : (context of situation)

ويسمى أيضاً بسياق الحال أو السياق المقامي [٥٦] ، أو السياق الخارجي للغة الذي يمكن أن تقع فيه .وهو السياق الذي يهتم بمراقبة العلاقات الزمانية والمكانية التي يحدث فيها الكلام ويعني به البيئة التي تحيط بالنص، ويتناول المعطيات الاجتماعية، والثقافية، والمخاطَب والمخاطِب والهدف ...الخ .

فهو يشمل كل ما يحيط باللفظة من عناصر غير لغوية " ففي بعض الأحيان لا يمكن العثور على الدليل الذي يرشدنا إلى المعنى الصحيح لمصطلح لغوي داخل الجملة نفسها؛بل نستمد من جمل المحادثة " [٥٧] .

فهو يؤدي وظيفة الإيضاح للكلام وفهم النص فهماً صحيحاً ، ولذلك يمكن القول بأنه يتكون من ثلاثة عناصر هي: [٥٨]

- شخصية المتكلم والسامع ومن يشهد الكلام ودور المشاهد في المراقبة والمشاركة .

---

[٥٥] – اللغة العربية، معناها ومبناها: د.تمام حسان، مكتبة الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٩٥م، ص١٣٤.

[٥٦] – دلالة السياق : ص٢٨ .

[٥٧] – علم الدلالة: ص٧١ .

[٥٨] – معجم اللسانيات الحديثة: ٢٨.

- العوامل والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المختلفة بالحدث اللغو .
- أثر الحدث اللغوي في المشتركين كالإقناع أو الفرح أو الألم أو الإغراء.

وقد أشار القدماء لهذا السياق ومنهم الإمام الشاطبي حيث يقول: "وجوه الاستعمال كثيرة ولكن ضابطها مقتضيات الأحوال التي هي ملاك البيان" [٥٩].

وهو يرى أن السبيل إلى فهم النص واستنباط دلالته هو الرجوع إلى الدلالة الوضعية للألفاظ [٦٠]، ثم الانتقال إلى الدلالة السياقية (لغوية/خارجية) فـ " المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل، ولا محيص للمتفهم من رد آخر الكلام على أوله، فإن فرق النظر في أجزائه فلا يتوصل إلى مراده [٦١]"، فالأحوال والأوقات والنوازل ومنها أسباب النزول عناصر مهمة يضيفها الشاطبي لفهم النص .

وقد فصل الأحوال بأنها " حال الخطاب من جهة نفس الخطاب ، أو المخاطَب، أو المخاطِب، أو الجميع، إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين، وبحسب مخاطبين، وبحسب غير ذلك... [٦٢]".

وقد أشار المفسرون إلى مجموعة من القرائن المقامية التي ذكروها في ثنايا كتبهم ولعل من أبرزها ظهوراً وما يعنينا هنا هو معرفة أسباب النزول والتي تعد من أبرز جوانب سياق الموقف (الحال) حضوراً في توجيه دلالات الآيات القرآنية وتوضيح المعنى عند المتلقين.

---

[٥٩] – الموافقات في أصول الشريعة: ٤/٢١.

[٦٠] – السابق : ٤/٢٦٧ .

[٦١] – السابق

[٦٢] – السابق .

ومن فوائد أسباب النزول ما قاله ابن تيمية في مقدمة التفسير" معرفة أسباب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب". فهي تعين على فهم المعنى فهماً صحيحاً وتيسر الوقوف على المعنى كاملاً، كما أن " دراسة الأسباب والوقائع تؤدي إلى فهم (حكمة التشريع)، وبخاصة في آيات الأحكام مما يساعد الفقهاء على نقل الحكم من الواقعة الجزئية (السبب الخاص) ، وتعميمه عل الوقائع المشابهة، وذلك بالاستناد إلى (دوال) في بنية النص ذاته، تساعد على نقل الدلالة من الخاص والجزئي، إلى العام والكلي " [٦٣] .

ويبقى لسياق الحال المرافق للنص" دوره الخاص في الكشف عن طبيعة تفاعل النص مع الظرف الذي نزل فيه، وبسببه، ويكشف عن تفاعل النص مع المخاطبين بشكل خاص، كما أنه لا يمكن تبيّن دقائق النص وفهم مراميه بمعزل عن هذا السياق المقامي"[٦٤] .

وخلاصة ما ذكر أن للسياق المقامي امتداد، إلى كل الأمور ذات الصلة بالكلام، من حال الخطاب والمتكلم أو الجميع ، ومعنى الكلام يختلف باختلاف تلك الأحوال.

٣- السياق الثقافي : (cultural context)

وهو سياق يقتضي تحديد المحيط الثقافي والاجتماعي الذي يمكن أن تستخدم فيه الكلمة، وعرفه ردة الطلحي بأنه " ذلك السياق الذي تنضوي تحته السياقات الأخرى لغوية، أو غير لغوية " [٦٥] .

ويشمل السياق الثقافي على "الاعتقادات المشتركة بين أفراد البيئة اللغوية والمعلومات التاريخية، والأفكار والأعراف المشاعة بينهم...وكل ما هو مرتبط بالحياة

---

[٦٣] – الخطاب القرآني : ص٨٣ .

[٦٤] – السابق : ٨٥ .

[٦٥] – دلالة السياق: ص٥٣ .

الاجتماعية أو له صلة بثقافة المجتمع الدينية، أو السياسية، أو الاجتماعية بوجه عام"[٦٦]

فللسياق المقامي أهمية واضحة، إذ يقتضي على القارئ كي يفهم نصاً من النصوص أن يلم بالسياق الثقافي لهذا النص، فالدلالة المعجمية تكون مظللة له إذا لم يتوسع بالبحث عن المعاني الأخرى والتي يستمدها من السياق الثقافي.

والسياق الثقافي كسياق علم الكلام يجعل للألفاظ دلالات خاصة، يجب على من يخوض في هذا العلم أن يلم بها؛ لأنه قد حظيت ألفاظ باهتمام طوائف من الناس فاستخدموها في علومهم، وعرفوا بها، يقول الجاحظ : " حُظْوة طوائف من الألفاظ لدى طوائف من الناس، ولكل قوم ألفاظ حظيت عندهم، وكذلك كل بليغ في الأرض وصاحب كلام منثور، وكل شاعر في الأرض وصاحب كلام موزون، فلابد أن يكون قد لهج وألف ألفاظاً بأعينها ليديرها في كلامه، وإن كان واسع العلم غزير المعاني كثير الألفاظ"[٦٧].

ومن ثم فالسياق الثقافي يعني دراسة الجوانب الثقافية المتعلقة بالنص والمؤلف ومنها:

- لغة النص: فإن لكل لغة طريقتها الخاصة في رؤية الأشياء وتصويرها[٦٨]، كما أن لكل مؤلف لغته الخاصة في استعمال اللغة و" الأسلوب هو طريقة الكاتب

---

[٦٦] – المعنى وظلال المعنى: ص١٦١ .

[٦٧] – الحيوان : لأبي عثمان عمرو بن الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطعة البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٩٦٥م، ٣٦٦/٣

[٦٨] – التركيب اللغوي للأدب، بحث في فلسفة اللغة والاستطيقا: د. لطفي عبد البديع، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، ط١، ١٩٧٠م، ص٢٥.

الخاصة في التفكير والشعور وفي نقل هذا التفكير وهذا الشعور في صورة لغوية خاصة " [٦٩] .

- مجتمع النص: وذلك لأن أي نص يصور لنا نظرة المجتمع الذي ينتمي إليه في عاداته وتقاليده وأعرافه ونوع ثقافته وذلك لـ "أن لكل ثقافة نصوصاً تعكس خصوصيتها وهويتها" [٧٠] .
- ثقافة المؤلف : إن دراسة ثقافة المؤلف له أهمية كبيرة في معرفة قصد المؤلف، ومن ثم لابد من دراسة السيرة الذاتية للمؤلف وما يتعلق بها مثل نوع ثقافته، وطبيعة عصره، والأحداث والوقائع التي حصلت فيه، والشخصيات التي عاصرته، والأماكن التي زارها...إلخ – وعلاقاتها بالنص .

٤- السياق المقاصدي :

وهو فهم الجملة بما تحمله من الباعث في القول أو النية أو المقصد في القول، وهو مقصد الخطاب في عمومه، وقد عرف المتقدمون السياق بأنه "ما سيق الكلام لأجله." [٧١] " وقد اهتم علماء الأصول بهذا السياق عند دراستهم نصوص الشريعة وفهمها ومعرفة مقاصدها وخاصة في الكتاب والسنة .

ولمعرفة مقاصد الشريعة أهمية في استنباط الأحكام الشرعية وإظهار محاسن الشريعة الإسلامية وأسرارها، وفهم النصوص وتفسيرها بشكل صحيح، وإبراز علل

---

[٦٩]– الأدب وفنونه، دراسة ونقد: د. عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، مطبعة السعادة، القاهرة، ط٧، ١٩٧٨م، ص٣٨.

[٧٠] – دينامية النص (تنظير وإنجاز): د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، ط٣، ١٩٩٠م، ص٤٥ .

[٧١] – حاشية العطار على جمع الجوامع: حسن العطار، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط١، ١٩٩٩م، ص٣٢٠.

التشريع وحكمه وأغراضه ومراميه الجزئية والكلية العامة والخاصة، والتصور الكامل للإسلام وبيان الإطار العام للشريعة والتصور الكامل للإسلام، مما يعين الناس على الاقتناع بهذا الدين ويزيدهم طمأنينة بالشريعة وأحكامها، فقد جاء الإسلام لتحقيق مصالح العباد الدنيوية والأخروية وإصلاح شئون الناس في العاجل والآجل ..

ومن هنا يعتبر سياق المقصد عند العلماء والمفسرين أساساً في فهم الكلام، وأصلاً يحتكم إليه، وبخاصة في كلام الله تعالى الذي ينبئ على أغراض معتبرة، ونظم وتحد ..

المحور الأول
أثر السياق في اختيار المفردة القرآنية
في آيات حادثة الإفك

١-مفردة (الإفك):

فالإفك كما تشير المعاجم اللغوية هو "الكذب: أفَك يأفِك وأفِك يأفَك إذا كذب. ويقال : أفَك كذب. وأفَك الناس: كذَبهم وحدثهم بالباطل ، قال:فيكون أفك وأفكْتُه مثل كذب وكذبْته. وفي حديث عائشة – رضوان الله عليها – حين قال فيها أهل الإفك ما قالوا.الإفك في الأصل الكذب، وأراد به هاهنا ما كذب عليها مما رميت به. والإفك : الإثم. والإفك: الكذب، والجمع الأفانك ... وهي الكذبة العظيمة...قيل صرفه بالإفك ... وفي التنزيل: "يؤفك عنه من أفك"، قال الفراء: يريد يصرف عن الإيمان من صُرف كما قال: " أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا "، يقول: لتصرفنا وتصدنا .والأفاك الذي يأفك الناس :أي يصدهم عن الحق بباطله ... " [٧٢] .

وفي القاموس المحيط " أفك– كضرب وعلم– إفكاً بالكسر والفتح والتحريك، وأفوكاً: كذب، كأفّك فهو أفّاك، وأفيك ، وأفوك. وعنه يأفكه أفكا: صرفه وقلبه، أو قلب رأيه، وفلاناً: جعله يكذب، وحرمه مراده... والأفَك –محركة– مجمع الفك والخطمين، وبالضم جمع أفوك: للكذاب " [٧٣] .

وقال ابن فارس: " الهمزة والكاف والباء أصل واحد يدل على قلب الشيء وصرفه

---

[٧٢] – لسان العرب : ٩٧/٢ .

[٧٣] – القاموس المحيط: لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي الشيرازي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط١، ١٩٨٠م، ص٩٣١ .

عن وجهه[٧٤]" . وزاد الراغب قيداً في أصل المادة، فقال: " كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه، ومنه قيل للرياح العادلة عن المهابّ مؤتفكة... " [٧٥].

إذن فالإفك هو:صرف الشيء عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه؛ ويدخل فيه صرف المقال والكلام عن الصدق إلى الكذب؛ فإذا تعلق بتهمة فهو الكذب والافتراء الصريح؛لأنه قول مأفوك عن وجهه.

وللسياق دور كبير في تحديد دلالة الكلمة حيث تتجاوز الكلمات دلالاتها المعجمية لتعطي دلالات جديدة قد تكون مجازية ، أو إضافية ، أو نفسية ، أو إيحائية ، أو اجتماعية، كما أن للكلمة في سياقها معنى مراد قد يكون خارج المعنى اللغوي المطابق ، فهنا الإفك يراد به قذف المحصنات وما ردده المؤتفكة ونسجوه حول عرض عائشة من أحاديث وأباطيل بلبلت خواطر المسلمين وكدرت نفوسهم؛ لشناعة ما أفكوا به ، وأثره البالغ على الجماعة المسلمة وعقائدها ونظامها الأخلاقي .

ومن الاستعمال السياقي قامت كتب الوجوه والنظائر في تعيين الوجوه للألفاظ القرآنية؛لذا تعددت الوجوه للفظ الواحد الذي يعود إلى معنى لغوي واحد؛ لأنه لا اعتبار لأصل اللفظ ولا لاستعمال العرب في تحديد الوجوه إلا إذا كان هو المعنى المراد في السياق [٧٦] .

---

[٧٤] – معجم مقاييس اللغة: مادة (أفك)، وانظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ٥٧/٥ .

[٧٥] – المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سعيد الكيلاني، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ص٢٣ .

[٧٦] – نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر: لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن الجوزي، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٩٨٧م، ١٣٨/١، ١٣٩ .

ومن هنا ذكر بعض المفسرين أن الإفك في القرآن الكريم على خمسة أوجه[٧٧] أو على سبعة أوجه حسب القرآن الحالية (المقام)

أحدهما:الكذب، ومنه قوله تعالى في سورة الأحقاف(فسيقولون هذا إفك قديم).

الثاني: الصرف، ومنه قوله تعالى في سورة الذاريات (يؤفك عنه من أفك)، وفي سورة الأحقاف) لتأفكنا عن آلهتنا(، و (أنى تأفكون) .

الثالث: القلب، ومنه قوله تعالى في سورة براءة (والمتفكات أتتهم رسلهم بالبينات)، وفي سورة النجم (والمؤتفكة أهوى)، وفي سورة الحاقة (والمؤتفكات بالخاطئة).

الرابع: السحر، ومنه قوله تعالى في سورة الشعراء (تلقف ما يأفكون).

الخامس:عبادة الأصنام، ومنه قوله تعالى في سورة الصافات (أإفكاً آلهة دون الله تريدون).

السادس: إدعاء الولد لله تعالى، ومنه قوله تعالى في سورة الصافات (ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون).

السابع:القذف وهو قذف المحصنات، ومنه قوله تعالى في سورة النور (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) يعني بهتان عائشة رضي الله عنها .

وهذا يعني أن الدلالة الأصلية للفظة(الإفك) والتي تم ذكرها سابقاً–وهي قلب الشئ وصرفه عن وجهه– موجودة في جميع الوجوه المذكورة، فالكذب فيه معنى (القلب والصرف) فهو قلب للحق باطلاً وللباطل حقاً وهما المعنى الأصلي للفظة ، و(الصرف) فيه قلب للحائق وجعل الباطل حقاً والحق باطلاً، و(عبادة الأصنام) قلب

---

[٧٧] – الوجوه والنظائر: أبو عبد الله الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: فاطمة يوسف الخيمي، مكتبة الفارابي، دمشق، ١٩٩٨م، ص٧٢_ ٧٤ .

لعبادة الحقيقة إلى العبادة الباطلة، و(ادّعاء الولد لله تعالى) قلب للوحدانية إلى الإشراك.

.(وقذف المحصنات) قلب للحقيقة حيث يجعل العفيفات زانيات، ومعنى القلب هنا أن عائشة-رضي الله عنها-كانت تستحق الثناء بما كانت عليه من الحصانة وشرف النسب لا القذف ، فالذين رموها بالسوء قلبوا الأمر عن وجهه، فكان قلبهم إفكاً قبيحاً وكذباً ظاهراً، بل أسوأ الكذب وأقبحه [٧٨] ؛ ولإنه -الإفك- مجلوب من عالم الظلام لا أصل له فقد صورته الآية مجسداً مجيئاً به كالشيء المنقول من غير موضعه .

وفي الاستعمال العربي للإفك فإنه يغلب إطلاقه على أشد الكذب، وإنما جاء التعبير عنه بقذف المحصنات في هذه الآية؛ لأن المراد هنا بيان الإفك من جهة الاستعمال السياقي وليس بيان معناه من جهة اللغة، فالمراد به في الآية موضع الدراسة الافتراء الذي افتراه المنافقون في حق بيت النبوة، حيث قذفوا عائشة رضي الله عنها.

والمفسرون في تفسيرهم للقرآن الكريم لا يجعلون المعنى الوضعي للفظ غايتهم، بل ينظرون إلى المعنى السياقي أو الاستعمال السياقي الذي تستنبط منه المعاني والأحكام، وهو ما سماه الشاطبي " المعنى التركيبي" [٧٩]، وأشار إليه د.تمام حسان بـ "المعنى المقامي" ويتكون من ظروف أداء المقال وهي التي تشتمل على القرائن الحالية (المقام)[٨٠].

---

[٧٨] – معالم التنزيل: أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت، ط٤، ١٩٩٥م، ٢٢/٦، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : ١٦٨/٤، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، دار الجيل، بيروت، د.ط، ١٠٠/٤ .

[٧٩] – الموافقات: ٦٣/٢ .

[٨٠] – اللغة العربية مبناها ومعناها : ص ٣٣٩ .

فالمفسرون كثيراً ما يبينون المراد باللفظ في سياقه دون رده إلى معناه اللغوي وهو ما يعبر به (بالتفسير على المعنى)، فإذا كان المقام في الآية موضع الدراسة يعني بالإفك قذف المحصنات فضلاً عما في ذلك من تناسب اللفظ مع سياقه فإنه في مقام آخر يعني دلالة أخرى .

فإذا نظرنا على سبيل المثال إلى تفسير قوله تعالى "وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون" الأعراف: ١١٧ فإننا سنجد في تفسير بعض السلف (ليأفكون) بمعنى يكذبون وذلك قول مجاهد وهو بيان لمعنى الإفك من جهة الاستعمال اللغوي وهو مراد في الآية، وبعضهم يفسرها بمعنى حبالهم وعصيهم وهذا قول الحسن وهو المراد من جهة السياق، فالذي يأفكونه أي يكذبون به هو حبالهم وعصيّهم .

وفي قوله تعالى"أءفكاً آلهة دون الله تريدون" الصافات:٨٦ سنجد أيضاً في تفسير بعض السلف بأن (أءفكاً) بمعنى أكذباً ، أو أنه أسوء الكذب وهو صرف الحق عن وجهه، وبعضهم يفسره بمعنى عبادة الأصنام فتكون آلهة " عين الإفك على المبالغة أو الكلام على تقدير مضاف أي عبادة آلهة وهي صرف العبادة عن وجهها" [٨١] ، أو جعل آلهة بدل من (إفكاً) فلما" جعل معبوداتهم نفس الإفك أبدل قوله (آلهة) " [٨٢] .

ويفرق العسكري بين الكذب والإفك فيقول: " إن الكذب اسم موضوع للخبر الذي لا مخبرله على ما هو به، وأصله في العربية التقصير ، ومنه قولهم: كذب عبى قرنه في الحرب إذا ترك الحملة عليه، وسواء كان الكذب فاحش القبح، أو غير فاحش

---

[٨١] – روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي، دار الفكر، بيروت، د.ت، ١٩٨٣م، ١٥٢/١٧ .

[٨٢] – نظم الدرر في تنايب الآيات والسور: برهان الدين أبو الحسن بن عمر البقاعي، مكتبة ابن تيمية، القاهرو ، ط١، ١٩٧٢م، ١٣٤/٧

القبح ، والإفك هو الكذب فاحش القبح، مثل الكذب على الله ورسوله وعلى القرآن، ومثل قذف المحصنة، وغير ذلك مما يفحش قبحه، وجاء في القرآن على هذا الوجه قال تعالى(ويل لكل أفّاك أثيم)، وقوله تعالى (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) . ويقال للرجل إذا أخبر عن كون زيد في الدار، وزيد في السوق: أنه كذب، ولا يقال أفك حتى يكذب كذبة يفحش قبحها على ما ذكرنا، وأصله في العربية: الصرف، وفي القرآن: (أنّى يؤفكون) أي يصرفون عن الحق، وتسمى الرياح (المؤتفكات)؛ لأنها تقلب الأرض فتصرفها عما عهدت عليه، وسميت ديار قوم لوط (المؤتفكات) لأنها قلبت بهم " [٨٣] .

وزاد الرازي في بيان لماذا خص هذا الكذب بأنه إفك في شأن عائشة رضي الله عنها فيقول: "إن المعروف من حال عائشة خلاف ذلك لوجه أحدها: أن كونها زوجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم المعصوم يمنع من ذلك...ثانيها: أن المعروف من حال عائشة قبل تلك الواقعة إنما هو الصون والبعد عن مقدمات الفجور، ومن كان كذلك كان اللائق إحسان الظن به، وثالثها: أن القاذفين كانوا من المنافقين وأتباعهم، وقد عرف أن كلام العدو المفتري ضرب من الهذيان، فلمجموع هذه القرائن كان ذلك القول معلوم الفساد قبل نزول الوحي " [٨٤].

والإفك أشد الكذب، فكل إفك كذب، وليس كل كذب إفكاً، فالإفك هو الكذب للإضرار بالغير؛لذا كان كذباً يراد منه سوء؛ لأن الكذب قد يكون لدفع ضرر أو جلب منفعة، لكن الإفك للإضرار بالغير؛ لذا في الآيات أتهم الله عصبة الإفك بسوء القصد؛ حيث إنهم يبغون إشاعة الفاحشة في المؤمنين.

ويبرز أثر السياق الثقافي في الترجيح لبعض دلالات الألفاظ ، وقد أشار الشهاب

---

[٨٣] – الفروق في اللغة: أبو هلال بن عبد الله العسكري، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٢م، ص١٧٤ .

[٨٤] – مفاتيح الغيب: فخر الدين محمد بن عمر الرازي، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٩٠م، ٢٣ / ١٧٣، ١٧٤.

الخفاجي إلى أثر العرف الاجتماعي في استخدام دلالات للألفاظ تخرج من دلالتها الوضعية، فنجد أن الإفك "حديث اختلقه المنافقون وراج عند المنافقين ونفر من سذّج المسلمين إما لمجرد إتباع النعيق ، وإما لإحداث الفتنة بين المسلمين...(ومن ثم أصبح)علم بالغلبة على ما في هذه القصة من الاختلاق [٨٥] " .

وإذا نظرنا إلى لفظ الإفك باشتقاقه في السياق القرآني العام فسنجده ورد في ثلاثين موضعاً من القرآن الكريم ، وكلها ورد غالباً بمعنى الكذب والصرف وقلب الحقائق الواضحة البينة كما بينا سابقاً ، وفي الآية موضع الدراسة سمي الإفك بالقذف وذلك لعظم المر وخطورته ، ثم اتهم الذين جاءوا به بأنهم كاذبون بعده وصف ذلك الإفك بأنه(بهتان عظيم)لأن النية من وراءه إشاعة الفاحشة.

واقتران كلمة الإفك بأل المعرفة يفيد زيادة التبشيع " حتى كأنه لا إفك إلا هو لأنه في حق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، وهي من أحق الناس بالمدحة لما كانت عليه من الحصانة والشرف والعفة والكرم ، فمن رماها بسوء فقد قلب الأمر من أحسن أوجهه إلى أقبح أقفائه ، وترك تسميتها تنزيهاً لها عن هذا المقام ، إبعاداً لمصون حياتها عن هذا المرام"[٨٦] .

وقوله (جاءوا بالإفك) ولم يقل:جاءوا بالقول الإفك ، أو بالقول الكذب، أو بالقول الزور، أو نحو ذلك، فجعل مجيئهم مباشراً بالإفك وليس بقالة الإفك ليوحي أولاً: بأنهم قد صاغوا قالة الإفك في الخفاء ، وباتفاق منهم جميعاً ، ليأتوا بها بعد ذلك ليسوقوها في أوساط المؤمنين. ثانياً: ليوحي بحقيقة الجرم الذي اقترفوه في حق أنفسهم ، وفي حق أم المؤمنين عائشة التي اتهموها زوراً وبهتاناً بالفاحشة ، كأنه أراد أن يقرر أن ما اقترفوه في حق عائشة ليس من جنس الأقوال التي نعبر عنها بالكلام ، إذ أنهم أنما

---

[٨٥] – التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، ١٨/١٧٠، ١٧١.

[٨٦] – نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٥/٢٣٩ .

استهدفوا بذلك قلب الحقيقة وتشويه الصورة الحقيقية لزوجة النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال الله تعالى "هذا إفك مبين" ولم يقل هو إفك؛ لتحقير ذلك الإفك، وليبرزه ويحدده فيقع الحكم عليه بأنه إفك مبين بعد هذا التمييز والتجسيد وفي ذلك قدر كبير من قوة الحكم وصدق اليقين من أنه أفك مبين .

٢- مفردة (عصبة):

العصبة في اللغة مأخوذة من العصب وهو الطي الشديد [٨٧]ف" العين والصاد والباء أصل صحيح واحد يدل على ربط شيء بشيء مستطيلاً أو مستديراً.ثم يفرع ذلك فروعاً ، وكله راجع إلى قياس واحد من العَصْب وهو الطي الشديد [٨٨] "، والعصابة الشيء الذي يتعصب به الرأس من الصداع ، ولا يقال إلا بالهاء وما شددت به الرأس فهو عصاب بغير هاء، ويطلق لفظ العصابة على الجماعة من الناس، والخيل والطير.[٨٩]

وبمثله عند ابن منظور وزاد" وفي التنزيل العزيز(ونحن عصبة) قال الأخفش: والعصبة والعصابة جماعة ليس لها واحد"[٩٠]، واعصوصب القوم صاروا عصابة و(العصبة) جماعة متعصبة متعاضدة، قال ابن فارس": العصبة هم الرجال العشرة،

---

[٨٧] – معجم العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي، ترتيب وتحقيق: د.عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط١، ١/٣٨٠

[٨٨] – معجم مقاييس اللغة: مادة (عصب) ٤/٣٤٠ .

[٨٩] – الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفار عطا، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٥٦م، مادة (عصب) ١/١٨٢ .

– [٩٠]لسان العرب: ٢٣/ ٢٩٥٦ .

ولا يقال لما دون ذلك عصبة، وإنما سميت(عصبة)؛لأنها قد عصبت ، أي ربط بعضها ببعض" [٩١]

وتستعمل لفظة (العصبة) للدلالة على الاجتماع والوحدة والاعتضاد والتوافق النفسي والفكري؛ إذ فيها إشارة إلى الارتباط وتوحيد الكلمة والقدرة العالية والعزم على بلوغ المراد، والتجانس في الفكر والرؤية والمصير والمصلحة، ولا اعتبار بعدد مخصوص، وهي الصفة التي تميز لفظة(عصبة) عن سائر الألفاظ التي تدل على التجمع البشري مثل: قوم، ورهط، ونفر، وشرذمة، وغيرها من الألفاظ التي تدل على التجمع ولا يشترط فيها الاعتضاد والارتباط وتوحيد الصف واجتماع الكلمة .

وقد ذكرت لفظة (عصبة) في القرآن الكريم في أربعة مواضع استعملت فيها على التوافق النفسي والاجتماع والتوحد والتعاضد والتوحد بغض النظر عن العدد مع اختلاف السلوك الاجتماعي والسياق المقامي في كل موضع أو اختلاف بعدها النفسي ودلالتها النفسية، فلا ينبغي أن يقف فهمنا للمفردة القرآنية عند الظاهرة اللغوية بل لابد من ربطها بسياقها والظروف التي أحاطت بها زمانيا ومكانياً ونفسياً .

وإذا كان للحرف نصيبه في أداء الدور النفسي في كتاب الله تعالى فإن حظ الكلمة أوفر في إجلاء المعاني النفسية-بلا شك- فالكلمة القرآنية تعد أحد أسرار الإعجاز البياني من حيث دقتها وقصديتها في الأداء وتقريب المعاني القرآنية إلى مداركنا البشرية بأوصاف حسية وتقف بنا على المعاني النفسية .

ولفظة (عصبة) من الألفاظ ذات الصدى النفسي الذي لا يمكن الاعتماد على المعنى اللغوي فقط لاستكناة معناها والوقوف عليه دون الرجوع إلى السياق والمقام وتحليل الحالة النفسية لمن ذكرت بحقهم هذه اللفظة.

---

[٩١] مقاييس اللغة : ٤/٣٤٠ .

فعلى سبيل المثال في قوله تعالى" إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين" يوسف: ٧، ذكر المفسرون دلالتين مستوحاة من قوله (نحن عصبة) في هذه الآية، الأولى: "نحن جماعة تضر وتنفع وتحمي وتخذل نقوم بمرافقته والدفاع عنه، بينما يوسف(عليه السلام) وأخيه ابنان صغيران لا كفاية فيهما. [٩٢]" الثانية: "أنه يفضلهما في المحبة علينا ، وهما اثنان صغيران لا كفاية فيهما ومنفعة ، ونحن جماعة عشرة رجال كفاة نقوم بمرافقته فنحن أحق بزيادة المحبة منهما لفضلنا بالكثرة والمنفعة " [٩٣].

يتضح من هذا أن أخوة يوسف أرادوا بقولهم (نحن عصبة) أن يذكروا مزية وفضيلة على يوسف وأخيه؛وهي الارتباط والاتحاد والتعاضد واتفاق الرأي بينهم كأنهم شخص واحد، وهذا في نظرهم يوجب امتيازاً زائداً ، ودلالة واضحة على أنهم أحق بالتفضيل، وأن الثقة بلا قيد يجب أن تمنح لهم ، فكيف يصح أن يفضل يوسف وأخوه وهما ضعيفان؟ حتى أن سيدن يوسف لم ينكر جمال عصبتهم فيخاف عليهم من العين قال تعالى" وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة"، فضلاً عن أن القرآن الكريم يسرد قصتهم دون شتم واستنكار لفعلتهم، بل يفصح عنهم سيدنا يوسف في النهاية ، ثم اعترافهم بالحق والرجوع إليه ، والاعتراف بفضل أخيهم عليهم .

---

[٩٢] – المحرر الوجيز: ٢٢١/٣، وانظر: زاد المسير: جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٢م، ١٤٠/٤، البحر المحيط: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان التوحيدي الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط٢، ٢٠٠٧م، ٢٨٣/٨ .

[٩٣] – الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٧٧م، ٣٠٤/٢ .

أما في الآية موضع الدراسة نجد أن لفظة (عصبة) تشير إلى دلالة تتصل بالسلوك الاجتماعي هي الغرور والاتفاق على الشر ومحاولة الفتك ، فهم عجزوا عن محاربة الإسلام جهرة فتواروا وراء ستار الإسلام ليكيدوا للإسلام خفية وكان حديث الإفك إحدى مكائدهم ، ثم خدع فيها المسلمون فخاض منهم من خاض في حديث الإفك، كما توحي بتداعيهم على إفكهم الذي استوردوه من ظنونهم الضالة واجتماعهم عليه اجتماع العصبة التي تربطهم علائق التلاحم والتوافق في فساد العقيدة وضعف الإيمان والانجذاب نحو الشر ، كما توحي بأن جماعة الإفك كان لها رأس فاسد يقودها إلى الشر ويجمعها عليه، ومن وراء هذا الرأس أعضاء تعمل معه لكل منها مكانه ودوره الذي يقوم به .

فهم عصابة إعلامية نهشت عرض النبي وآذته في أهله وتمالأت وأحكمت الكيد والتدبير، كما أن خبر العصبة أجدر بالتصديق، يعني إن أخبرك أحد بشيء غريب فستنكره عليه ، ولكن إن أخبرتك عصبة فستصدق، وذكر (عصبة) تحقير لهم ولقولهم؛ لذا كان لكل منهم جزاء ما اكتسب من تلك الفتنة ما يناسب جرمه ودوره من العذاب في الحياة الدنيا والآخرة .

ثم يصف الحق سبحانه وتعالى هذه العصبة بأنها (منكم) أي بأنها لا تزال- بحسب الظاهر على الأقل- تنتمي إليكم وترتبط بكم، برابطة النسب، أو برابطة الإيمان والدين، لذلك فأنتم تعرفون أفراد هذه المجموعة التي أطلقت فرية الإفك في عائشة فرداً فرداً كما تعرفون أنفسكم وأبناءكم، ولا يخفى عليكم أمرهم ودوافعهم، ليؤكد القران بهذا أن فرية الإفك التي قيلت في عائشة لم تكن عفويا من بعض الأفراد، وإنما كانت بتدبير مجموعة من الموتورين الحاقدين صاغوها بدقة، ليستهدفوا بها الإساءة للرسول صلى الله عليه وسلم شخصيا. ما يعني أن القول المقول في عائشة من إنتاج الجماعة أو المجموعة المجتمعة على أمر واحد، وليس من إنتاج الفرد المفرد. وهو

من تدبير الجماعة في سبيل تحقيق أهدافها الخفية والمبيتة. هذا يقتضي انه قائل غير بريء، أو غير حسن النية.

٣-مفردة (الخير/الشر) :

الشر والخير قد يكونان : محضين مطلقين فلا يكون في أحدهما شيء من معنى الآخر، وحينئذ يكون الخير هو ما يرغب فيه الكل بكل حال كالعقل والعدل والفضل، ويكون الشر ضد ذلك ، وقد يكونان مقيدين فيكون خيراً لواحد شراً لآخر كالمال أو الولد الذي ربما يكون أحدهما خيراً لزيد وشراً لعمرو " [٩٤] .

وعلى هذا يكون الشر ما زاد ضرره على نفعه ، والخير ما زاد نفعه على ضرره ، ومنه ما ذكر في الآية موضع الدراسة باعتبار السياقي المقامي؛لأن ما ظنه المسلمون شراص في حقيقته حيث لحقهم منه الأذى والألم والمشقة لم يكن كذلك على الإطلاق، فقد أخرج الله سبحانه لهم الخير من قلب هذا الشر المظنون ، حيث انجلى هذا الدخان تتبدد الضباب وأسفر وجه الحق عن آية من آيات الله في الطهر والعفة والبراءة التي سجلها الله في آيات عدة من كتابه ، وما خلفه الله ذلك كله من الثواب والأجر للمجني عليهم بما صبروا على الأذي ، وما في هذه الآيات من كرامة لهذه الطائفة المؤمنة وما لهم من شأن عظيم عند الله سبحانه وتعالى.

ومن الخير تفويت غرض العصبة وهدفهم من إفكهم ، حيث أرادوا هزيمة المسلمين في ميدان الأخلاق، فرد الله كيد العصبة إلى نحورهم ، وأظهر نظام الاجتماع الإسلامي وقواعد أخلاق المسلمين على أقوى ما يكونان من التماسك والطهارة ، ورحابة القلوب وبراءة الصدور .

---

[٩٤] – المفردات في غريب القرآن : ٢٣١/١ .

٤-مفردة (الإثم):

الإثم في اللغة هو" البطء والتأخير يقال:ناقة آثمة أي متأخرة...والإثم مشتق من ذلك؛ لأن ذا الإثم بطيء عن الخير متأخر عنه" [٩٥]، أو هو " التقصير، أثم يأثم إذا قصر"[٩٦] . أو هو " الذنب...اسم للأفعال البطيئة عن الخيرات " [٩٧] .

فالمعنى العام للإثم هو كل فعل يبطئ عن الخير، وكأن الإنسان يبطئ عن الخير، فهو مذنب، ولذلك نجد في القرآن الكريم أن الإثم يكتسب ، أي يتم كسبه لسبب ما، من عمل ما يقوم به الإنسان، أو قول يقوله، أو حتى فكرة يفكر بها ، وهو بسبب ذلك العمل والقول يكتسب إثماً أي يكون مذنباً، وكسب الإثم عبارة عن السعي وراءه والاهتمام به ليصل به وينتفع منه ، ففيه معنى الاهتمام والسعي والعمد بعكس الخطيئة قد تكون من قبل العمد وغير العمد .

" وصيغة الافتعال من كسب تستعمل في الذنب إشارة إلى أن الإثم يترتب على ما حصل فيه تصميم وعزم قوي صدّقه العمل بما فيه من الجد والنشاط .[٩٨] " فالاكتساب لا يقع إلا في الذنب والإثم لثقل بنائه وكلفته ، ولعله إشارة إلى أن ارتكاب الإثم خروج عن الفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها وحركة تسرية، فهو عبء لا يستساغ حمله، وفيه إشعار بشدة العقوبة.

وعادةً ما يستخدم الفعل (كَسَبَ) المجرد في الخير، والفعل اكتسب المزيد الدال على الافتعال في الشر؛وذلك " لأن فِعْل الخير يتمشى وطبيعة النفس، وينسجم مع

---

[٩٥] – معجم مقاييس اللغة: ٦٠/١ .

[٩٦] – الفروق: ص٦ .

[٩٧]–. عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق: محمد التنوجي، عالم الكتب، بيروت ، ط١، ١٩٩٣م، ص٩ .

[٩٨]– نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٤٤٨/٥ .

ذراتها وتكوينها، فالذي يُقدِم على عمل الخير لا يقاوم شيئاً في نفسه، ولا يعارض ملكَة من مَلَكَاته، أو عادة من العادات... فالأمر الطبيعي تستجيب له النفس تلقائياً، أمّا الخطأ والشر فيحتاج إلى افتعال، لذلك عبَّر عن المكر والتبييت والكيد بـ (اكتسب) الدال على الافتعال [٩٩] .

والاكتساب لا يقال إلا فيما أسندته لنفسك فكل اكتساب كسب وليس كل كسب اكتساباً ، وقيل : خص الكسب بالصالح والاكتساب بالسيئ .

ووردت كلمة الإثم ومشتقاتها في القرآن الكريم (٤٨) مرة تختلف معانيها باختلاف موضعها والمقام والسياق ومنها:

- طمس الحقيقة وكتمانها : كما في قوله تعالى " ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه" البقرة : ٢٨٣ .
- الوصية وتحريفها باللسان : كما في قوله تعالى" فإنما إثمه على الذين قلب يبدلونه" البقرة: ١٨١
- إبطاء عن فعل الخير : كما في قوله تعالى" فيهما إثم كبير ومنافع للناس" البقرة : ٢١٩ أي في تناولهما إبطاء عن فعل الخيرات .
- العذاب والعقاب : كما في قوله تعالى" ومن يفعل ذلك يلق أثاما" الفرقان: ٦٨، أي عذاباً ونكالاً.
- الخيانة: كما في قوله تعالى" فإن عثر على أنهما استحقا إثما "المائدة:١٠٧، أي خانا في إيمانهما .
- الفجور: كما في قوله تعالى "فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفورا" الإنسان:٢٤، أي فاجراً .

---

[٩٩] – تفسير الشعراوي (الخواطر): محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، قطاع الثقافة، ١٩٩٧م، ١٠٢١٥/١٦ .

أما في الآية موضع الدراسة فهو الكذب والبهتان وطمس براءة البريء الغافل برميه بالفاحشة إفكاً وزورا، وقد سمي الكذب والافتراء والإفك في هذه الآية إثماً لمون الكذب من جملة الإثم، وذلك مثل تسمية الإنسان حيواناً لكونه من جملته، فكل الصفات على سوء الحدث أو الفعل أة العمل أو القول كلها إثم، ومنها ما هو إثم بين، ومنها ما هو لمم من الإثم، وما هو كبيرة من الإثم...الخ، أي أنها لاحقة لكلمة الإثم، فالزنى لاحقة لكلمة الإثم ، بينما التقاسم بالأزلام فسق ورجس من الإثم ، ورجم المحصنات فعل بالرغم من كونه قول لأن فيه ارتداد فعلي على من رجمت به وهو من الإثم ، وهكذا .

فكل ما هو محرم أساساً إن عصينا تحريمه وارتكبناه فيه إثم مكتسب ، أي أن القتل فيه إثم والشرك فيه إثم ورمي المحصنات فيه وإثم وهكذا؛وذلك لأن الإثم ليس صفة بل اسم لشيء يحمل الإثم في ذاته وفيه إثم كما القتل والبغي ورمي المحصنات وغيره.

٥-مفردة (الكبر) :

في قوله تعالى : " ومن تولى كبره " قراءتان بكسر الكاف وهذه قراءة الجمهور ، وقرأ بضمها حميد الأعرج ويعقوب والحسن ومجاهد وغيره بمعنى: والذي تحمّل أكبره " والكبر : معظم الشيء ، وقوله تعالى "والذي تولى كبره منهم " قال ثعلب :يعني معظم الإفك" [١٠٠] .

وقال الرازي ": الكبر بالكسر العظمة...وكبر الشيء أيضاً معظمه ومنه قوله تعالى (والذي تولى كبر)" [١٠١]، وبنحوه عند ابن منظور حيث يقول": وورد ذلك في

---

[١٠٠] - المحكم والمحيط الأعظم: لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيدة المرسي، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط١، ٢٠٠٠م، ١٢/٧ .

[١٠١]- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: ٢٦٥ .

حديث الإفك : وهو الذي تولى كبره أي معظمه، وقيل : الكبر الإثم وهو من الكبيرة كالخطء من الخطيئة ... والكبر من التكبر" [١٠٢] .

ومن العلماء من فرق بين دلالتي اللفظ بفتح الكاف وضمها ، فذكر الطبري في جامع البيان أن " أولى القراءتين في ذلك بالصواب: القراءة التي عليها عوّام القراء، وهي كسر الكاف؛لإجماع الحجة من القراء عليها، وأن الكبر بالكسر: مصدر الكبير من الأمور، وأن الكبر بضم الكاف إنما هو من الولاء والنسب من قولهم: هو كُبر قومه ، والكبر في هذا الموضوع: هو ما وصفناه من معظم الإثم والإفك : فإن كان ذلك كذلك، فالكسر في كافه هو الكلام الفصيح دون ضمها، وإن كان لضمها وجه مفهوم " [١٠٣] .

ووافقه في ذلك عدد من العلماء كابن عطية والثعلبي، يقول ابن عطية ": وهما مصدران من كبر الشيء عظم ، ولكن استعملت العرب ضم الكاف في السن تقول: هذا كبر القوم أي كبيرهم سناً ومكانة " [١٠٤] .

وقد نقل الثعلبي عن أبي عمرو بن العلاء قوله " هو خطأ لأن الكبر بضم الكاف في الولاء والسن ، ومنه الحديث: الولاء للكُبْر، وهو أكبر ولد الرجل من الذكورة ، وأقربهم إليه سناً " [١٠٥] .

---

[١٠٢] – لسان العرب: ٣٨٠٩/٤٢ .

[١٠٣] – جامع البيان عن تأويل آي القرآن: أبو جعفر بن جرير الطبري، تحقيق: محمود محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت–لبنان، ط١، ٢٠٠٠م، ١٩٢/١٧ .

[١٠٤] – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ١٧٠/٤ .

[١٠٥] – الكشف والبيان عن تفسير القرآن :أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت–لبنان، ط١، ٢٠٠٢م، ٧٨/٧ .

وبين هنا أن الطبري يستعين في الترجيح لرأيه بالمعنى الدلالي للنص ، كما يستعين بالسياق الثقافي (معهود العرب) في الترجيح ، ومعه في ذلك ابن عطية. أما الثعلبي فإنه يستعين في الترجيح لرأيه بالمعنى الدلالي للنص يعززه بسياق الحديث.

وهناك رأي آخر بأن الكِبر والكُبر لغتان مثل صِفر وصُفر وممن ذهب إلى هذا الكسائي والفراء وابن عاشور والألوسي، قال الفراء: وهو وجه جيد في العربية (النحو) لأن العرب تقول: قولي فلان عظم كذا أي أكبره وأكثر [١٠٦]، وقال ابن عاشور : أنهما "لغتان عند جمهور أئمة اللغة"[١٠٧]، وقال الألوسي ": هما لغتان فبالكسر البداءة بالإفك، وبالضم معظم الإفك " [١٠٨] .

فالكبر في أصله حالة من الإعجاب بالنفس يرى فيها الإنسان نفسه أكبر من غيره وأعظم، واللفظ فيه إشارة إلى ما كانت عليه حال من قاد حملة الإفك واضطلع منها بالنصيب الأكبر فوق أنه استن قبيحاً وصار مقتدى به في ذلك فكان ذنبه أفحش وأكبر [١٠٩] .

وإذا كان (كبره) بالضم تعني الولاء أو كبير القوم مكانة ففيه إشارة إلى كبيرهم (عبد الله بن أبي) وأكبرهم مكانة في هذه العصبة فهو من قاد الحملة واضطلع منها بالنصيب الأكبر، ومنشئ هذه الفرية في عائشة، وقد اخذ يستهدف نبوة النبي، ليستهدف- بالتالي- إيمان المؤمنين بنبوة النبي، وهم السواد الأعظم من المسلمين، أو بالأحرى من أهل المدينة الذين خسر رأس العصبة تبعيتهم له، بعد أن صاروا في منظوره على الأقل تابعين للنبي محمد صلى الله عليه وسلم وكأن الغاية النهائية من

---

[١٠٦] – معاني القرآن: أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٨٠م، ٥٠٩/٤ .

[١٠٧] – التحرير والتنوير: ١٨/ ١٧٣ .

[١٠٨] – روح المعاني : ٣٦٦/١٣ .

[١٠٩] – المفردات في غريب القرآن : ٦٣٧/٢ .

صياغة قول الافك في عائشة البحث عن أتباع، أو بالأحرى استرجاع التبعية المفقودة؛ محورة الآخرين حول الذات من جديد بعد أن لم تعد الذات محورا لهم، بل بعد أن كادت الذات ذاتها تذوب أو تتلاشى أو تتمحور هي نفسها حول محور النبوة .

يصدق هذا على الأقل بالنسبة لرأس المنافقين عبد الله بن أبي الذي كنّت عنه الآيات بـ "الذي تولى كبره منهم". وهذا يقتضي أن ما قيل في عائشة قد جسد- على الأقل، بالنسبة لقائليه الأصليين، أو بالنسبة لمن صاغوه- صراع الإرادات بين قوى الخير ممثلة في قوى الإيمان بالنبوة التي صارت لها الغلبة، وقوى الشر المشككة في حقيقة النبوة التي تريد أن تكون لها الغلبة هذه المرة على الأقل بحكم ما أتيح لها من فرصة الطعن في عرض النبي وصولا إلى التشكيك في صدق نبوته وهو صراع كادت تتغلب فيه هذه المرة كفة فريق الشر رغم قلته على فريق الخير رغم كثرته لولا تدخل السماء ونزول الوحي لدحض هذه الفرية وإبراز زيفها.

وإذا كان (كبره) بالكسر تعني البدء بالإفك، وبالضم معظم الإفك على الرأي الثاني، فكلا المعنيين ملاحظ في الآية موضع الدراسة أيضاً، فقد بدأ به المتولى وقام بمعظمه وأكثره، وإن كان قيامه بذلك الدور خفياً مستوراً لا يرى؛إذ كانت الفئة المشيعة لهذا القول والمروجة له بين الناس تجتمع عنده ، وبأمره ورأيه كانت ترجف بالقول وتذيعه بين الناس.

٦-مفردة (الظن) :

من بلاغة التعبير القرآني استخدام مفردة الظن للدلالة على اليقين والعلم، كما في قوله تعالى " لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا" يقول السمعاني في تفسيره : ويقال : أن معنى الظن هنا أيقن " [١١٠] .

---

[١١٠] - تفسير السمعاني: منصور بن محمد بن عبدالجبار التميمي المروزي الشافعي السلفي أبو المظفر السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم و غنيم بن عباس غنيم، دار الوطن- السعودية، ط١، ١٩٩٧م، ٣/ ٥١٠ .

ولكن لماذا استعمل الظن بدلاً من اليقين والعلم، مع العلم أن اليقين يدل على نفسه دلالة ثابتة ومطابقة بخلاف الظن فإنه من الألفاظ المشتركة يقول الراغب الأصفهاني في المفردات: "اليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدراية وأخواتها، يقال علم يقين، ولا يقال: معرفة يقين، وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم "[١١١]. وذلك لأن الظّان يجوز أن يكون المظنون على خلاف ما هو ظنه ولا يحققه، والعلم يحقق المعلوم .

فالظن " : اسم لما يحصل من أمارة ، ومتى قويت أدت إلى العلم ، ومتى ضعفت جداً لم يتجاوز حد التوهم" [١١٢]. والعلم : إدراك الشيء على ما هو عليه في الواقع، ويمكن أن يكتسب من كل ظني رجح بدليل أو قرينة، أما الظن: فهو تجويز أمرين أحدهما أظهر من الآخر وقد يستعمل بمعنى اليقين إن كان ظناً راجحاً بأدلة وقرائن، أو يغلب الظن قال الزركشي ": الظن حيث وجدَ محموداً مثاباً عليه فهو اليقين" [١١٣].

وبذلك تكون مفردة الظن نسبية تستمد دلالتها حسب السياق إما مطابقتها للوهم ، وغما بقربها وبعدها من درجة اليقين فهي ذات دلالة متحركة ، يقول ابن جرير: " مع أن الظن إنما تستعمله العرب في موضع العلم فيما كان من علم أدرك من وجه المشاهدة والمعاينة ، فإنها تستعمل فيه الظن ، لا تكاد تقول :أظنني حياً، وأظنني إنساناً، بمعنى: أعلمني إنساناً، وأعلمني حياً "[١١٤] .

وبالنظر إلى السياق المقامي تتضح بلاغة هذه المفردة في هذا السياق فهي من باب الظن الراجح الذي يغلب عليه الظن ويفيد التردد الراجح بين طرفي الاعتقاد ؛لأن

---

[١١١] – المفردات في غريب القرآن : ١/ ٨٩٢ .

[١١٢] – السابق : ٣١٧/١ .

[١١٣] – البرهان في علوم القرآن : ١٥٦/٤ .

[١١٤] – جامع البيان : ١٩٦/١٣ .

هناك من لم يظنوا خيراً فجال في هذه الفتنة رجال ونساء، وكان يجب عليهم أن يظنوا خيراً أول ما سمعوا بالإفك، بل إن القرآن الكريم لا يحثهم على ظن الخير رسول الله أو زوجته، وإنما ظن الخير بأنفسهم هم؛ لأن هذه المسألة لا تليق بالمؤمنين فما بالك بزوجة نبي الله صلى الله عليه وسلم ؛ولأن الإنسان لا يظن بالناس إلا ما هو متصف به أو بإخوانه، ولأن المؤمنين كالجسد الواحد، فرمي الغير وسوء الظن به هو رمي للنفس وسوء الظن بها .

والموهوم لا يدفع المعلوم، فالأمور المحكمة يتعين أن يراد بها كل أمر مشتبه مظنون "فأمرهم بالرجوع إلى ما علم من إيمان المؤمنين الذي يدفع السيئات وأن يعتبروا هذا الأصل المعلوم ، ولا يعتبروا كلام الخبيثين بما يناقضه ويقدح فيه" [١١٥] .

والله سبحانه وتعالى يشرع في جولة من التربية والتهذيب للمؤمنين يمزج فيها التوبيخ واللوم والعتاب بالأدب العالي الرفيع ، ويرفع المسلمين من وهدة الظن إلى شاطئ الأمان وبرّ اليقين نوكا كان ينبغي لهم أن يكونوا عليه من ظن حسن وسلوك قويم، وهو الظن الذي يكون سنده الأول ما عليه المرء المظنون به من بدءاً من الإيمان الوازع له عن فعل المنكر والفاحشة.

٧-مفردة (جاء) :

ومن بلاغة التعبير القرآني أيضاً استخدام مفردة (جاء) باستعمال الفعل الماضي للدلالة على الإتيان ، على الرغم من وجود نظائر لها في المعجم اللغوي وهو(أتى) التي تعطي معنى المجيء

فقد يحدث أن توجد لفظتان يظن أنهما مترادفتان إذ يدلان على المعنى نفسه ، على حين أن هاتين اللفظتين يمكن التمييز بين دلالتيهما بدقة بفعل السياق اللفظي

---

[١١٥] – القواعد الحسان لتفسير القرآن: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مكتبة المعارف، الرياض– السعودية، د.ط، ١٩٨٢م، ١٤٨/١ .

والقرآن التي ترد معها ، فتفرد لها معنى معيناً دون غيره ، ويحدد للفظة دون نظيرتها حيث" يؤتي المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته، ويختار له اللفظ الذي هو أخص به وأكشف عنه وأتم له وأحرى بأن يكسبه نبلاً ويظهر فيه مزية" [١١٦] .

وتشترك صيغة جاء وأتى في دلالة القدوم والإقبال، غير أن بينهما فروقاً تتكشف عند تأمل السياق، فقد افتتح القرآن الكريم حادثة الإفك بالفعل (جاء) ولم يقل (أتى)، وأن القرآن الكريم لم يستعمل غير الفعل الماضي من المجيء فلم يأت من مضارع ولا أمر ولا اسم فاعل ولا مصدر ولا مفعول، بخلاف (أتى) فإنه استعمل منه المضارع والماضي والأمر واسم الفاعل واسم المفعول فنقول: (أتى ، ويأتي ، وائت) وكلها وردت في القرآن الكريم .

ولعل ذلك يعود إلى ثقل تصريفات (جاء) في اللفظ وسهولة تصريفات (أتى) فإن أتى أخف من جاء، وقيل بالمجيء لما هو أصعب وأصعب مما تستعمل له (أتى) ، ويغلب على الإتيان أن يكون في المجيء الذي فيه سهولة [١١٧] .

إذ نجد (أتى) مستعملة في الأمور التي يتوصل إليها بسهولة، أو تكون في سياق تناسب فيه المعاني بخفة وسهولة ، أما (جاء) فترد في مقامات المشقة ، وثقل المر هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إن ما لم يقع من الأمور المستكرهة أخف مما وقع منها، فإن الأمور المستكرهة إذا وقعت كانت أشق وأثقل مما وقع منها، ففرق القرآن الكريم بين ما وقع وما لم يقع فاستعمل لما ما لم يقع مضارع (أتى) دون مضارع (جاء) أما ما وقع من الأحداث كان بعضها أثقل من بعض فاستعمل الفعل (جاء)، أي فاستعمل لما هو أثقل (جاء) ولما هو أخف (أتى) [١١٨] .

---

[١١٦] – دلائل الإعجاز : ص٣٠ ، ٣١ .

[١١٧] – المفردات في غريب القرآن : ١/٨٠ .

[١١٨] – التحرير والتنوير : ١٨/ ١٤٨ .

ولنقل حادثة الإفك وما أحدثته من مشقة لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل لفظ المجيء، واختياره ماضياً للدلالة على أنهم قد صاغوا قالة الإفك في السيدة عائشة في الخفاء وباتفاقهم جميعاً على انفراد، أو بعيداً عن أعين الآخرين الذين لا يشاركونهم أهدافهم ونواياهم ، بطريقة تحقق أهدافهم جميعاً .

أما استعمال لفظ الإتيان في قوله تعالى " فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون " جاء لبيان عجزهم في الإتيان بالشهود الأربعة التي تتطابق مع شهادتهم تماماً على هذا المنكر .

وبهذا نصل إلى أن للسياق اللفظي مقتضى وحاكمية على الدلالة فهو يوجه اللفظة بحسب حاجته منها وعلى وفق ما تحمله اللفظة من دلالة معينة تفارق بها نظيرتها .

٨-مفردة (أفضتم) :

إن المعنى السياقي للعبارة يتكون من معاني الألفاظ التي تتألف منها وكيفية استعمال هذه الألفاظ في نص تلك العبارة اللغوية ، فأية لفظة ليس لها إلا معنى واحدا يحدده السياق " لأن الكلمة في المعجم (متعدد ومحتمل) ولكن معنى اللفظ في السياق واحد لا يتعدد لأنه : أ- يوجد في السياق قرائن تعين على اختيار معنى واحد من بين المعاني المختلفة التي تجدها في المعجم. ب- ولأن السياق أيضاً يرتبط بمقام معين يحدد المعنى في ضوء القرائن الحالية [١١٩] " .

في حين نجد المعنى المعجمي ليس كل شيء في إدراك معنى الكلام فهناك عناصر ذات دخل كبير في تحديد المعنى بل هي جزء من أجزاء الكلام، كشخصية المتكلم والمخاطب وما بينهما من علاقات وما يحيط بالكلام من مناسبات وظروف ،

---

[١١٩] - اللغة العربية معناها ومبناها : ص ٣٦٥ .

فلا يتحدد المعنى المقصود تنصيصاً للمفردة إلا عن طريق سياق النص وما يحيط به من ظروف ووقائع .

وعلى هذا المنوال يمكن أن ننظر إلى لفظة (أفضتم) في التعبير القرآني حيث وردت في غير موضع وكان لها في كل موضع دلالة تغاير دلالتها الأخرى في الموضع الآخر، وذلك بناء على مقتضى السياق اللفظي الواردة فيه. فهذه اللفظة قد انطوت على جملة من المعاني اللغوية في القرآن الكريم، بيد أنها لا تحمل هذه المعاني جميعاً في كل موطن وإنما لها في كل مكان معنى يناط بها .

وإذا بدأنا بالنظر إلى معنى (أفضى) في المعاجم المختلفة نجد أن الرازي يقول": أفضى خرج إلى الفضاء.وأفضى إليه بسره ، وأفضى بيده إلى الأرض مسها بباطن راحته في سجوده... وأسرّ إليه حديثاً أي أفضى إليه به . [١٢٠]"

وفي لسان العرب يقول ابن منظور: " وأفاض القوم في الحديث:انتشروا ، وقال اللحياني: هو إذا اندفعوا وخاضوا وأكثروا، وفي التنزل (إذ تفيضون فيه) يونس: ٦١ ؛ أي تندفعون فيه وتنبسطون في ذكره. وفي التنزيل أيضاً :(لمسكم في ما أفضتم فيه) النور:١٤ وأفاض الناس من عرفات إلى منى: اندفعوا بكثرة إلى منى بالتلبية، وكل دفعة إفاضة. وفي التنزيل : (فإذا أفضتم من عرفات) البقرة :١٩٨، ومعنى أفضتم دفعتم بكثرة. وقال خالد بن جنبة: الإفاضة سرعة الركض وأفاض الراكب إذا دفع بعيره سيراً بين الجهد ودون ذلك، قال: وذلك نصف عدو الإبل عليها الركبان" [١٢١] .

ولنأخذ على سبيل المثال لا الحصر لفظة)أفضتم(في سياق قوله تعالى : " فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام " البقرة : ١٩٨ نجد أنها تدل على

---

[١٢٠] – الصحاح : ص ٢٤١، ٢٤٦ .

[١٢١] – لسان العرب : ٣٥٠١/٣٩ .

معنى الخروج والسير والدفع بكثرة، أي دفعتم أنفسكم بكثرة وسرتم ، وقيل جئتم أو رجعتم من حيث جئتم .

وذكر الزمخشري أفضتم أي " دفعتم بكثرة وهو من إفاضة الماء أي صبه بكثرة وأصله أفضتم أنفسكم " [١٢٢].

وذلك لأن الآية بصدد الحديث عن أعمال الحج بدلالة استعمال (من عرفات) فقد سُمّي الخروج من عرفة إفاضة؛لأن الحجيج يخرجون في وقت واحد وهم عدد كثير فتكون لخروجهم شدة وكثرة ، وذكر الإفاضة من عرفات يقتضي سبق الوقوف به لأنه لا إفاضة إلا بعد الحلول بها.

والشيخ الشعراوي يورد قولاً لطيفاً في تفسير (أفضتم)، حيث يرى في قوله تعالى "فإذا أفضتم من عرفات" دلالة على أن الله تعالى حكم بأن عرفات ستمتلئ، وكل من يخرج منها كأنه فائض عن العدد المحدد لها ، وهذا حكم من الله تعالى في الحج ، فكأن التعبير يمثل لنا مشهد الإفاضة بالإناء الذي امتلأ، وذلك يفيض منه ، فلا ندري من أين يأتي الحجيج ولا إلى أين يذهبون" [١٢٣].

والذي يقوي هذا المعنى السياقي بدلالة قوله تعالى"فاذكروا الله عن المشعر الحرام" إذ إن قوله " إذا أفضتم – " أي الخروج والدفع بكثرة والرجوع والمسير – شرط للمقصود وهو: "فاذكروا الله " [١٢٤]، فالإفاضة حصلت عقيب ابتغاء الفضل .

يزاد على هذا الملحظ الدلالي أن فعل (الإفاضة) أدى معنى الدفع والسير بفعل السياق الواردة فيه اللفظة فتحقق بهذا الاستعمال دلالة الخروج والدفع وسبب هذه الإفاضة في آن معاً .

---

[١٢٢] – الكشاف : ٢٤٨/١ .

[١٢٣] – الخواطر : ٢٨٨/١ .

[١٢٤] – التحرير والتنوير : ٢٣٨/٢ .

ومنه أيضاً الآية موضع الدراسة " ولولا فضل الله عليكم ورحمته لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم"، حيث نلحظ أن معنى (أفضت) هنا هو نشر الحديث والإكثار منه والسرعة والاندفاع فيه ، أي تندفع إلى الشيء اندفاعاً تقصد فيه السرعة، ومعنى السرعة أن يأخذ الحديث الكبير زمناً أقل مما يتصور له، فكأنهم أسرعوا في هذا الكلام لما سمعوه .

يقول ابن عاشور: "والإفاضة في القول مستعار من إفاضة الماء في الإناء ، أي كثرته فيه. فالمعنى : ما أكثرتم القول فيه والتحدث به بينكم" [١٢٥]، وكأن معنى أفضتم هنا هو: سرعة إفشاء الخبر، والحرص على نشره، ودفعه بين الناس، والخوض فيه دون أدنى تحر عن مدى صحة هذا الخبر.

والذي يسند إيجاد هذه الدلالة وصحة القول بها هو السياق ؛لأن الآية بصدد الحديث عن الفضل العام والرحمة العامة لله سبحانه وتعالى فيمن خاض في حديث الإفك في كلا الدارين : في الدنيا بإسقاط عقوبة الحد عنهم بعفو السيدة عائشة وصفوان عنهم، وفي الآخرة بإسقاط العذاب عنهم بالتوبة، ولولا ذلك الفضل لمسهم عاجلاً عذاب يستحقر دونه التوبيخ والجلد .

والذي يسند ذلك أيضاً التعليل بـ (في) حيث التناسب المعنوي بين (مسّ) و (في)، فلما كان حديث الإفك ظرفاً ملابساً للمس وسبباً له، صار حديث الإفك وعاء يصب فيه، أي أن المس يحدث هذه الظروف ويسببها؛ ولهذا جاء بـ (في) التي تفيد الظرفية لتعبر عن معنى السببية .

يزاد على هذا مجيء الاسم الموصول (ما) للإبهام وتهويل أمر الإفك واستهجان ذكره، كما وصف الجرم والعذاب بالعظم ، فلما عظم الجرم وعظم الخطب كان العذاب كذلك عظيماً على المأفوك ومن يهمه أمره ، وكذلك على من خاض في الإفك وأسرع

---

[١٢٥] – السابق : ١٨/١٧٧ .

فيه دون تدبر لولا أن تداركه فضل ورحمة من ربه .

كما أن الآية مع ما قبلها جاءت تبرئة لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من حديث الإفك ولا يخفى عظم هذا في بيت النبوة ، لذا كان وصف العذاب بالعظم متسقاً استعماله مع هول الموقف الذي يروم السياق تبيينه من ترهيب السامع وعظم حرمة بيت النبوة .

وإذا أحصينا كلمة (عظيم) في سورة النور نجد ورودها خمس مرات تحذيراً من ذلك اللسان في قذف المحصنات بغير برهان، لذا كان هذا الوصف ضرورة اقتضاها السياق في ترسيخ قضايا الشرع .

ومن هنا نجد أن ما يحدد معنى لفظة (أفضتم) في الآيات القرآنية هو السياق فهو القرينة التي تشخص الدلالة وتفرض قيمة واحدة بعينها على اللفظة .

٩-مفردة (تلقّونه) :

في قوله تعالى "إذ تَلَقّونه" عدة قراءات ذكرها عدد من العلماء في تفاسيرهم، كلها تنبثق من قراءتين أساسيتين ذكرهما الشوكاني في تفسيره حيث يقول : " إذ تلقونه (بفتح التاء واللام وتشديد القاف المفتوحة من التلقي وهي قراءة الجمهور والأصل: تتلقونه فحذف إحدى التاءين . قال مقاتل ومجاهد :المعنى يرويه بعضكم عن بعض.قال الكلبي: وذلك أن الرجل منهم يلقى الرجل فيقول :بلغني كذا وكذا فيذكر قصة عائشة لتشيع الفاحشة .ويتلقونه تلقياً. قال الزجاج : معناه يلقيه بعضكم إلى بعض وقرأ ابن عباس وعائشة وعيسى بن عمر ويحي بن يعمر وزيد بن علي بفتح التاء وكسر اللام وضم القاف، وهذه القراءة مأخوذة من قول العرب ولق يلق ولقاً: إذا كذب قال ابن سيده جاءوا بالمتعدي شاهداً على غير المتعدي .قال الخليل وأبو عمر: أصل الولق الإسراع يقال جاءت الإبل تلق أي : تسرع . قال أبو البقاء: أي يسرعون فيه. قال ابن جرير: وهذه اللفظة أي تلقونه على القراءة الأخيرة مأخوذة من الولق وهو

الإسراع بالشيء بعد الشيء كعدد في إثر عدد، وكلام في إثر كلام [١٢٦] .

ويتفق توجيه هذه القراءات بالنظر إلى اللفظ ودلالته اللغوية والمنظور السياقي له، فمعنى اللفظ يرتبط بالسياق اللغوي وهو جزء من معنى السياق الذي يرد فيه، فالسياق لا يكون إلا بوجود نصوص، وأن معرفة معناه يقوم على أساس معرفة معاني الألفاظ التي تربطها علاقات قوية ويجمعها بناء متماسك موحد .

وكلها قراءات تدور في معنى تلقي الكلمات واستقبالها بالأخذ والقبول والعمل بها حين علمها، فتلقى الشيء بمعنى استقبله وأخذه ورواه بعضكم عن بعض وقبلتموه من غير دليل؛ ولذلك أضافه إلى اللسان.[١٢٧]

وأصلها تتلقونه بتاءين حذفت إحداهما ، وأصل التلقي أنه التكلف للقاء الغير، ويطلق على أخذ شيء باليد من يد الغير .كما أن الدلالة اللغوية لقراءة السيدة عائشة رضي الله عنها وعيسى بن عمر ويحيى ابن يعمر وزيد بن علي (إذ تَلِقُّونه) تتفق والمعنى الدلالي للنص والسياق العام للآيات الكريمة، حيث إنها مأخوذة من الولق وهو الكذب والإسراع بالشيء بعد الشيء كعدد بعد عدد وكلام بعد كلام ، أي أنهم يستمرون في كذبهم على السيدة عائشة ويسرعون في نشر إفكهم بألسنتهم وهذا ما حدث فعلاً ، قال الطبري: وكأن عائشة وجهت معنى ذلك بقراءتها "تَلِقُّونه" بكسر اللام وتخفيف القاف ، أي: إذ تستمرون في كذبكم وإفككم بألسنتكم. كما يقال: ولق فلان في السير فهو يلق: إذا استمر فيه.[١٢٨]

وروي عن عائشة رضي الله عنها :أنها كانت تقرأ ذلك وتقول: الولق الكذب، وقال ابن أبي مليكة-رضي الله عنهما- :وكانت أعلم بذلك من غيرها لأنه نزل فيها .[١٢٩]

---

[١٢٦] – فتح القدير : ١٦/٤ ، ١٧ .

[١٢٧] – التحرير والتنوير : ١٧٧/١٨، ١٧٨، روح المعاني : ١٣/ ٣٧٩ .

[١٢٨] – جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ١٧/ ٢١٦ .

[١٢٩] – روح المعاني : ٩ / ٣١٥ .

والذي يسند هذه الدلالات وصحة القول بها استخدام لفظ التلقي بالألسن والقول بالأفواه، إشارة إلى أن هذا القول كذب فهو لا يصل إلى القلب وإنما هو مجرد كلام باللسان، يقول ابن جزي: " وفائدة قوله بألسنتكم وبأفواهكم الإشارة إلى أن ذلك الحديث كان باللسان دون القلب ، إذ كانوا لا يعلموا حقيقته بقلوبهم" [١٣٠] .

ويقول أبو السعود " : (:إذ تلقونه) بحذف إحدى التاءين ظرف للمس أي: لمسكم ذلك العذاب العظيم وقت تلقيكم إياه من المخترعين (بألسنتكم)" [١٣١] .

ويقول سيد قطب في تصوير جميل: " والقرآن الكريم يرسم صورة لتلك الفترة التي أفلت فيها الزمام، واختلت فيها المقاييس، واضطربت فيها القيم، وضاعت فيها الأصول...وهي صورة فيها الخفة ، والاستهتار، وقلة التحرج، وتناول أعظم الأمور وأخطرها بلامبالاة ولا اهتمام إذ تلقونه بألسنتكم) لسان يتلقى عن لسان، بلا تدبر ، ولا ترو ، ولا فحص ، ولا إمعان نظر ، حتى لكأن القول لا يمر على الآذان ، ولا تتملاه الرؤوس، ولا تتدبره القلوب" [١٣٢] .

ويقول ابن عاشور في بيان تشبيه الله سبحانه وتعالى التلقي عن طريق اللسان ما نصه" إطلاقه في قوله (إذ تلقونه بألسنتكم) ففي قوله (بألسنتكم) تشبيه الخبر بشخص، وتشبيه الراوي للخبر بمن يتهيأ وستعد للقائه؛ استعارة مكنية: فجعلت الألسن

---

[١٣٠] – التسهيل لعلوم التنزيل : الإمام أبو القاسم محمد بن أحمد بن جُزيّ الكلبي، ضبطه وصححه وأخرج أحاديثه: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط١، ١٤١٥هـ، ٨٥/٢ .

[١٣١] – إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، ١٦٢/٦ .

[١٣٢] – في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، بيروت – القاهرة، ط١٧، ١٤١٢هـ، ٢٥٠٢/١٨، ٢٥٠٣ .

آلة التلقي على طريقة تخييلية ، بتشبيه اللسن في رواية الخبر بالأيدي في تناول الشيء" [١٣٣] .

ومما يعضد دلالة تلقي الكلمات وقبولها وسرعة نشرها والعمل بها من غير دليل رغم علمهم بكذبها، هو جعل اللسن آلة التلقي، مع أن أصل التلقي يكون بالسمع في الحقيقة لكن على أساس أنه مجرد ما تلقاه يفيض به ويقوله جعل تلقي الأخبار بالأسماع إشارة إلى سرعة الأخذ وسرعة النطق دون التعقل والتدبر، يقول ابن عاشور: " لأنه لما كان هذا التلقي غايته التحدث بالخبر جعلت الألسن مكان الأسماع مجازاً بعلاقة الأيلولة.وفيه تعريض بحرصهم على تلقي هذا الخبر فهم حين يتلقونه يبادرون بالإخبار به بلا تروٍ ولا تريث.وهذا تعريض بالتوبيخ أيضاً" [١٣٤].

وكأن في هذا إشارة إلى إمكانية أن تستعجل النفس في ترديد ما لم تتحقق منه بعد، والذي من شأنه أن يكون عند الله (بهتان عظيم) ، والذي يقوي هذا المعنى السياقي بدلالة قوله:"وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم" أي: " تقولون قولاً مختصاً بالأفواه من غير أن يكون له مصداق ومنشأ في القلوب لأنه ليس بتعبير عن علم به في قلوبكم" [١٣٥].

ووجه ذكر "بأفواهكم" مع أن القول لا يكون إلا بالفم، إنما يراد به تحقيق القول، وأنه ليس مجرد ظن وتخيل بل يقولونه صراحة بأفواههم، أو يراد به: أن هذا القول على مجرد الفم فقط ولا يصل إلى قرارة النفس ولا قيمة له إنه مجرد تلقي دون وعي وتدبر؛ لأنه وإن كانوا يقولونه إلا كأنهم يستبعدونه مستريبون في حقيقته لأنهم (ما ليس بهم علم). ويقول ابن عاشور في بيان ذلك: "أنه أريد التمهيد لقوله (ما ليس لكم

---

[١٣٣] – التحرير والتنوير: ١٨/ ١٧٨ .

[١٣٤] – السابق .

[١٣٥] – إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : ٦/١٦٢ .

به علم): أي هو قول غير موافق لما في العلم، ولكنه عن مجرد تصور، لأن أدلة العلم قائمة بنقيض مدلول هذا القول، فصار الكلام مجرد ألفاظ تجري على الأفواه"[١٣٦] وبنحوه عند الزمخشري [١٣٧] والرازي[١٣٨] .

أو أن المراد أنهم يقولون بملء أفواههم ؛فإن القاذف قد يشير إشارة وقد يتبجح ويجهر بالقذف ويصرح به ويتشدق، أو أنه للتأكيد أي تأكيد أنهم قالوا ذلك .ويسند هذا المعنى ختم الآية بأنه عند الله عظيم ، حيث أنه لما كان التلقي عند هؤلاء في هذه القضية باللسان، دل على أن المتلقي لم يع الكلام ، ولم يحسب حسابه، ولم يتفكر فيه، وفي خطورته ، وأثره ، وأنهم يقولون ذلك بأفواههم ، وليس بألسنتهم ، ك ، هم تثبتوا منه وجزموا به لوضوح أدلته.. هذا عندهم لكنه عند الله الخبير بمآل هذا الاتهام عنده عظيم أن تتهم أم المؤمنين عائشة وخاصة أن في اتهامها طعن في عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم. يقول سيد قطب " : وما يعظم عند الله إلا الجليل الضخم الذي ترمز له الرواسي، وتضج منه الأرض والسماء" [١٣٩] .

وهكذا يستمر السياق القرآني في وصف ما وقع من المؤمنين وما أخطئوا فيه مباشرة فبعد أن تداولوا كلام الإفك فيما بينهم ، وتلقيه لهم بالرواية بعضهم عن بعض وسؤال الواحد منهم أخاه بقوله كذا وكذا ومسارعتهم جميعاً في ذلك حتى لكأن الكلمات والاتهامات تتابع متدفقة سريعة في لغو رخيص تتحرك به الألسنة وحدها دون تدبر أو تعقل .

ثم يشير السياق بعد ذلك إلى استعذابهم لمقالة السوء ، وترديدهم لها بأفواههم قبل التحقق والتثبت من هذه التهمة دون أن تتدبرها قلوبهم وعقولهم، ثم عدم تقديرهم

---

[١٣٦] – التحرير والتنوير : ١٨/١٧٨ .

[١٣٧] – الكشاف : ٤/٢٧٦ .

[١٣٨] – مفاتيح الغيب : ٢٣/١٨٠ .

[١٣٩] – في ظلال القرآن : ١٨/٢٥٠٣ .

لمسئولية الكلمة وحسبانهم لما تفوهوا به شيئاً يسيراً هيناً تافهاً لا يؤبه له ولا يلحقهم به إثم ولا يضيرهم في شيء .

١٠- مفردة (بهت) :

تدور معاني البهتان في اللغة حول الكذب والافتراء والباطل فهو من مادة بهت بمعنى دهش وتحير . أما في الاصطلاح فيراد به القول على شخص ما لم يفعله ، فهو الكذب والافتراء الباطل الذي يتحير منه ، مما يجعل المفترى عليه مبهوتاً لدى سماعه ما نسب إليه كذباً مندهشاً متحيراً لفظاعته فهو أفحش من الكذب ، يقول زين الدين الرازي " : بهته قال عليه ما لم يفعله . [١٤٠]"

وبنحوه عند ابن منظور وزاد "وبهت الرجل أبهته بهتاً إذا قابلته بالكذب. وقوله: (أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً) النساء:٢٠ : أي مباهتين آثمين. قال أبو إسحاق: البهتان الباطل الذي يتحير من بطلانه، وهو من البهت التحير ...والبهتان افتراء.وفي التنزيل العزيز (ولا يأتين ببهتان يفترينه) الممتحنة : ١٢ ... والبهت والبهيتة : الكذب" [١٤١].

وفي المعجم الوسيط " :(البهت ، والبهتان) الكذب المفترى" [١٤٢]، وهو "كذب نتحير من عظمه" [١٤٣]، وبنحوه عند البغوي [١٤٤]، وبنحوه عند الزمخشري [١٤٥] .

ومن المعلوم أن السياق اللفظي هو القرينة الفنية التي يتم بها ترشيح جميع الاحتمالات المتواردة على اللفظة والتثبيت على دلالة معينة إذ " من الصعب جداً

---

[١٤٠]- مختار الصحاح : ص٤١ .

[١٤١] – لسان العرب : ٣٦٨/٣ .

[١٤٢] – المعجم الوسيط : ٧٣/١ .

[١٤٣] – الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : ص٧٥٩ .

[١٤٤]- معالم التنزيل : ٦ /٢٥ .

[١٤٥]- الكشاف : ٤/ ٢٧٦ .

تحديد دلالة الكلمة، ذلك أن الدلالة لا تقتصر على مدلول الكلمة في ذاتها، إنما تحتوي على المعاني كلها التي يمكن أن تتخذها هذه الكلمة ضمن السياقات اللغوية[١٤٦]" التي توضع فيها ؛ " فالكلمات والدلالات ترتبط على نحو وثيق بالسياق وعلاقاته فهو الذي يعطي الإضاءة للغرض والقصد [١٤٧] " منها، ولقد أشار أبو هلال العسكري إلى أهمية السياق في التحديد الدلالي ، حيث يقول : "وأما ما يعرف به الفرق بين هذه المعاني وأشباهها كثيرة منه اختلاف ما يستعمل عليه اللفظان اللذان يراد الفرق بين معنيهما[١٤٨] ". وكذلك استعمال اللفظة الواحدة في سياقات مختلفة حتى تتولد لها في جو كل سياق دلالة تغاير الدلالة التي تحققت لها في سياق آخر ، وهذا يتأتى من القرآن اللفظية الكاشفة التي ترافق اللفظة في السياقات .

وعندما ننظر إلى لفظة (البهتان) في ضوء ما تقدم نجد أن لها معان متعددة في القرآن الكريم بناء على مقتضى السياق اللفظي الواردة فيه ومنها::

- معنى الزنا في قوله تعالى "ولا يأتين ببهتان يفترينه" الممتحنة :١٢
- معنى الحرام في قوله تعالى "أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً" النساء : ٢٠
- معنى الكذب والإفك كما في الآية موضع الدراسة وهي قوله تعالى "ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم" النور: ١٦

فالسياق هو القرينة التي تشخص الدلالة وتفرض قيمة واحدة بعينها على اللفظة، فلا توجد حيثية لمعرفة المعنى وتحديده إلا بالسياق اللفظي فهو القرينة التي يتم بها ترشيح جميع الاحتمالات المتواردة على اللفظة والتثبيت على دلالة معينة .

١٤٦- الألسنية علم اللغة الحديث: د. ميشال زكريا، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط٢، ١٩٨٣م، ص٢١١ .

١٤٧- علم الدلالة العربي، النظرية والتطبيق: فايز الداية، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥م، ط١، ص١٩٥ .

١٤٨ - الفروق في اللغة : ص١٦ .

والبهتان في آية النور موضع الدراسة يدل على الكذب الذي يتحير من بطلانه ويدل على الإفك المفترى في حق السيدة عائشة رضي الله عنها، فجاء بمعناه المعجمي الحقيقي أو ما يدعى (بدلالة التبادر) وعضد السياق هذه الدلالة فجاءت القرينة اللفظية (ما يكون لنا) بمعنى ما ينبغي لنا ، وهي تأتي للشيء الممتنع غاية الامتناع الذي لا يصح ولا يليق كما في قوله تعالى "وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً" فلا ينبغي أن نتكلم بهذا ولا يصح أن نتكلم بهذا؛لأنه لا يمكن أن الله سبحانه وتعالى يجعل هذا الأمر واقعاً من أهل النبي صلى الله عليه وسلم مما في ذلك من الأمر الذي لا يليق بحكمة الله عز وجل لخطورة الأمر وعظمته .

والذي يسند إيجاد هذه الدلالة وصحة القول بها هو لفظة (سبحانك) وهي تدل على التنزية البالغ أي ننزهك يا ربنا أن يقع هذا من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن ذلك ينافي تنزيهك.

فكلمة (سبحانك) من أحسن بل هي أحسن ما يكون من كلمات في هذا الموضع، ومن هنا فهي ليست للتعجب مما قيل بل هي للتنزيه، أي إنهم ينزهون الله سبحانه وتعالى عما نسب إلى أهل رسوله .

كما أن الآية ذكرت اسم الإشارة (هذا) مرتين : في الموضع الأول :جاء مجروراً بحرف الجر الباء، وفي الموضع الثاني : وقع مبتدأ، وقد جيء بها زيادة في التوبيخ المقول لهم، كما أن الله سبحانه وتعالى وصف البهتان بأنه (عظيم)؛ لأنه خالف ما تقتضيه حكمته عز وجل فضلاً عن أنه في مقام أهل بيت أفضل الخلق .

١١-مفردة (أبدا) :

من بلاغة التعبير القرآني- أيضاً - استخدام مفردة (أبداً) للدلالة على الزمن الطويل الممتد على الرغم من وجود نظائر لها في المعجم اللغوي ف (الأمد) يعطي معنى الزمن الطويل المحدد ، لكنه المدة الزمنية المحددة التي لها غاية ونهاية : نقول :أمِد يأمَدْ ، أمداً من باب غضب، يغضب، غضباً ونقول أمده كذا. ونقول :

ضربت لفلان أمداً.أي : زمنية محددة .

وهو المذكور في قوله تعالى "قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا "الجن:٢٥ يأمر الله سبحانه نبيه أن يقول هذا القول للكافرين به، و" إن" هنا حرف بمعنى "إلا " أي لا أدري هل ما توعدون به قريب الوقوع .أم له أمد بعيد حدده الله.والذي كانوا يوعدون به هو العذاب في الدنيا جزاء على كفرهم وتكذيبهم، وقد أوقع الله بهم العذاب بعد عدة سنوات من نزول هذه الآية حيث هزمهم على أيدي المسلمين في غزوات : بدر وأحد والخندق وحنين وغيرها ، وبهذا كان الأمد قصيراً .

ولكل إنسان أمدان: الأول: ماضي وهو يوم ولادته، والثاني: أمد مستقبلي قادم وهو يوم وفاته الذي ينتظر لكن (الأبد) " الزمن الطويل الممتد الذي لا يتجزأ كما يتجزأ الزمان .يقال :زمان كذا. ولا يقال : أبد كذا. وحق الأبد لا يثنى ولا يجمع . لأنه لا يتصور حصوله أبد آخر يضم إليه فيثنّى به[١٤٩] " .

"وأبداً" ظرف مختص بالاستقبال أو للتأكيد في المستقبل يدل على الاستمرارية، وهو المقصود ها هنا في قوله تعالى" يعظكم أن تعودوا لمثله أبدا" النور : ١٧، وفي قوله تعالى" ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا" النور: ٢١ .

فالأبد: المدة الطويلة، نقول: أبدَ يأبدْ وتأبّد الشيء إذا تخلّد، وهو ظرف زمان للمستقبل. بمعنى الدهر الطويل، والمدة الممتدة، التي لا تتجزأ ولا تنقسم ولا تنتهي. والأصل لا يأتي إلا مفرداً نكرة.

وبالنظر إلى السياق المقامي في الآية الأولى: "يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا" تتضح بلاغة هذه المفردة في هذا السياق، حيث جاءت في مجال العبرة والعظة والدرس المفيد من هذا الذي حدث من المؤمنين، ومن هذا الذي كان ينبغي أن يحدث منهم بعد أن أطلعهم الله سبحانه وتعالى على عظيم ما تفوهت به ألسنتهم، وهنا

---

[١٤٩] – المفردات : ص٥٩ .

تجيء العظة لجميع المؤمنين، فالله سبحانه يعظ المؤمنين ويزجرهم وينهاهم متوعداً أن يقع منهم ما يشبه هذا أبداً فيما يستقبل من الزمان، بل ويهدد المؤمنين بتعليق إيمانهم على قدر انتفاعهم بهذه العظة؛ لأن الإيمان يقتضي عدم الوقوع في مثل ذلك، وليس من شأن المؤمن أن يكشف له عن بشاعة عمل كهذا الكشف وأن يحذر منه مثل هذا التحذير ثم يعود إليه وهو مؤمن أبداً.

لذا ذكر الأبد في هذه الآية لأن الأبدي هو المصاحب لجميع الأزمنة محققة كانت أو مقدرة من جانب المستقبل إلى غير نهاية، وجاء في التحرير والتنوير " الأبد الزمان المستقبل كله والغالب يكون ظرفاً للنفي" .[١٥٠]

وبالنظر إلى السياق المقامي- أيضاً - في الآية الثانية " ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا " نجده يدور حول التحذير من دعوات الشيطان التي علت نبرتها في المجتمع، فتبع خطواته أولئك الذين استجابوا له ووقعوا في شباكه، وحادث الإفك نموذج من هذا المنكر الذي دعا له الشيطان وانقاد إليه المؤمنون الخائضون فيه، فلا طهارة ولا منجاة لأي مجتمع يتبع خطوات الشيطان، إلا أن يدركه فضل الله ورحمته حين يتجه إليه ويسير على نهجه، ويتوب إبى الله ويرجع إليه حيث تنفتح له أبواب توبته ومغفرته ورحمته، ولولا هذا الفضل وتلك الرحمة ما طهر هذا المجتمع أبدا.

لذا ذكر الأبد في هذه الآية لتأكيد تأبيد أنه لا تطهر ولا تطهير ولا اهتداء أحد من الخلائق لشيء من الخير في الدنيا حتى قيام الساعة إلا برحمة الله وفضله.

١٢ - مفردة (الفاحشة):

يقول الزمخشري: " الفحشاء والفاحشة: ما أفرط قبحه[١٥١] "، ويقول ابن سيده:

---

[١٥٠] - التحرير والتنوير: ١٣/ ٣٨٨، فتح القدير : ٢١/٤ .

[١٥١] - الكشاف : ٢٧٨/٤ ، ٢٧٩.

"الفحش والفحشاء والفاحشة:القبيح من القول والفعل[١٥٢] "، وعند زين الدين الرازي :" كل شيء جاوز حده فهو (فاحش) وقد (فَحُشَ) الأمر بالضم (فُحْشاً) و(تفاحش).[١٥٣] "

ويقول ابن منظور: "والفحشاء اسم الفاحشة... ورجل فاحش: ذو فحش ، وفي الحديث\(إن الله يبغض الفاحش المتفحش)، فالفاحش ذو الفحش والخنا من قول أو فعل، والمتفحش الذي يتكلف سب الناس ويتعمده ، وقد تكرر ذكر الفحش والفاحش والفاحشة في الحديث، وكل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي. قال ابن الأثير: وكثيراً ما ترد الفاحشة بمعنى الزنا ويسمى الزنا فاحشة... وقيل: الفاحشة خروجها من بيتها بغير زوجها... وكل خصلة قبيحة فهي فاحشة من الأقوال والأفعال... وقد يكون الفحش بمعنى الزيادة والكثرة ؛ ومنه حديث بعضهم وقد سئل عن دم البراغيث فقال : إن لم يكن فاحشاً فلا بأس ...وفحّش بالشيء: شنّع... وكل أمر لا يكون موافقاً للحق والقدْر فهو فاحشة قال ابن جني:وقالوا فاحش وفحشاء كجاهل وجهلاء حيث كان الفحش ضرباً من ضروب الجهل ونقيضاً للحلم... وأما قول الله : "الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء" البقرة : ٢٦٨ ؛ قال المفسرون: معناه يأمركم بأن لا تتصدقوا، وقيل الفحشاء هاهنا البخل ، والعرب تسمي البخيل فاحشاً ... وقال ابن بَرّي: الفاحش: السيئ الخلق، المتشدد البخيل[١٥٤] ." وبنحوه عند الفيروزابادي .[١٥٥]

ومن خلال تتبع الأقوال السابقة والسياق القرآني نجد أنه شاع إطلاق الفاحشة على كل ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال ، أو الزنا والأمر المنكر ، أو البخل ، أو سب الناس ، أو الزيادة والكثرة.

---

[١٥٢] – المحكم والمحيط الأعظم : ١١٤/٣ .

[١٥٣] – مختار الصحاح : ص٢٣٤ .

[١٥٤] – لسان العرب : ٣٣٥٥/٣٧- ٣٣٥٦ .

[١٥٥] – القاموس المحيط : ص٦٠٠

وبتتبع سياق الحال في الآيات موضع الدراسة نجد أن الفاحشة في قوله تعالى" إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون" يقصد بها الرمي بالزنا والإفك وترديد الاتهامات الكاذبة في عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم .

"فلما حذر الله المؤمنين من العود إلى مثل ما خاضوا فيه من الإفك على جميع أزمنة المستقبل أعقب تحذيرهم بالوعيد على ما عسى أن يصدر منهم في المستقبل على محبة شيوع الفاحشة في المؤمنين ، فالجملة استئناف ابتدائي. " [١٥٦]

وقرينة هذا المعنى هو "يحبون أن تشيع الفاحشة" ففيها ثلاث سيئات متراكبة تستحق العذاب وهي :حب شيوع الفاحشة وهو شعور وعمل وجداني ، وإشاعة الفاحشة بوسائل وحيل قولية وعملية ، ثم فعل الفاحشة نفسها ، وقد ناط الله العذاب في الآية بأدنى هذه الثلاثة وهو فعل القلب ليعلم الناس فظاعة هذه الجريمة وأن ما فوقها أولى منها بهذا العذاب ، وأن من أحب ذلك فقد شارك في هذا الإثم ، كما شارك فيه من لم ينكره ، إذ رآه وأشاعه ونشرها في الناس لا يفترق هؤلاء عمن فعله أو مارسه ، وليعلم أن أهل الإفك كما عليهم العقوبة فيما أظهروه فكذلك يستحقون العقوبة بما أسروه من محبة إشاعة الفاحشة في المؤمنين . [١٥٧]

. وجيء بصيغة المضارع (يحبون ، تشيع) للدلالة على الاستمرار" فالوعيد هنا على محبة وقوع ذلك في المستقبل ، وأما المحبة الماضية فقد عفا الله عنها بقوله (ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم)."[١٥٨]

---

[١٥٦] – التحرير والتنوير : ١٨/ ١٧٤ .

[١٥٧] – مفاتيح الغيب : ٣٤٥/٢٣ .

[١٥٨] – التحرير والتنوير : ١٨٤/١٨ .

والإشاعة تسهيل إظهار الشيء وإفشاؤه والعمل على نشره في الناس ومن ثم تتناسب اللفظة مع حادثة الإفك من كونها شاعت وظهرت وتداولها الناس بالقول واللسان؛ " ولأن الشيوع من صفات الأخبار والأحاديث كالفشو وهو :اشتهار التحدث بها فتعين تقدير مضاف أي أن يشيع خبرها[١٥٩] ."

١٣- مفردة (يتّبع) :

وفي قوله تعالى "ومن يتّبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر " تشير صيغة (يتّبع) إلى قيمة تعبيرية بالنظر إلى بنائها الصرفي ودلالتها اللغوية والمنظور السياقي لها ، وخاصة عندما نقارنها بصيغة(يتْبع) حيث إن صيغة الفعلين (يتّبع) و(يتْبع) تختلفان بوحدة صرفية لها أثر فاعل في القيمة الدلالية لسياق الآية .

وقد لحظ ابن الزبير الغرناطي أن لكل واحد من الصيغتين تمايزاً عن الآخر؛لأن صيغة (تبع) ثلاثي هو الأصل، وصيغة (اتّبع) مزيد هو الفرع ، وما فيه زيادة في المبنى يستلزم زيادة في المعنى ، وأن السياق هنا بني على التأكيد بقوله تعالى"يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان" ناسب ذلك أن تختص بالزيادة التي تفيد التأكيد، فإذا اشتركت الصيغتان في دلالتيهما على الاتباع فإن (تبع) تدل على الإتباع الذي لا تكلف فيه ولا مشقة ، وأما (اتّبع) فإن في هذه البنية افتعل تنبئ عن تكلف ومشقة وتحميل للنفس طاقة أخرى.

ويستدل ابن الزبير على هذا الفرق بقوله " :ألا ترى قول الخليل-عليه السلام-في إخبار الله تعالى عنه (فمن تبعني فإنه مني) إبراهيم: ٣٦ حيث أشار بقوله فإنه مني إلى الخاصة من سالكي سبيله...فعبر بما يشير إلى غاية التمسك والقرب حين قال: مني تناسب ذلك قوله: تبعني يريد : الجري على مقتضى الفطرة وميّز الحق بديهاً بسابقة التوفيق من غير إطالة نظر أو علاج كبير لسَبْقية الهدى ووضوح الشواهد .

---

[١٥٩] – السابق

وفي طرف من حال هؤلاء من قيل فيه (ومن أضلّ ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين) القصص : ٥٠ ، وهذه الآية وأمثالها مراد بها من تعامى عن النظر في الدلالات وترك واضح الاعتبار وحمّل نفسه-بقدر الله-على ما لا يشهد له نظر ولا يقوم عليه البرهان ، فكأن هؤلاء...عالجوا أنفسهم حتى انقادت طباعهم إلى غير ما تشهد به الفطرة" . [١٦٠]

ويواصل ابن الزبير تأكيد ذلك بعرض مزيد من الشواهد تؤكد صحة ما ذهب إليه، فيقول:" وكذلك قيل لمن وسم بالإسراف من عصاة الموحدين ، فقيل لهم (اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم)الزمر: ٥٥؛ وذلك لإلفتهم المخالفات وانقياد نفوسهم لها احتاجوا في الإقلاع عن ذلك والأخذ في خلاف حالهم إلى التّعمّل والعلاج، وكذا قيل لمن ألف الطاعات وارتاض لالتزامها "لا تتبعوا خطوات الشيطان"؛ لإلفة نفوسهم الطاعات حتى إنهم إن وقعت منهم مخالفة فبتعمّل وعلاج؛ لإنها خلاف المألوف[١٦١]."

وبالنظر إلى سياق الحال الوارد في سياق القصة نجد تفصيلاً وعرضاً لحادثة الإفك، حيث وصَف الذين جاءوا بالإفك وحدد عقابهم، ووضح كيفية انتشار الحادثة وما كان يجب على المؤمنين عند سماعهم، ثم التحذير من العودة لمثل ذلك.

ومن ثم فإن الله سبحانه وتعالى ينبه على المؤمنين المتمسكين بدينهم من تتبع خطوات الشيطان وينهاهم عن أن يسلكوا طريقه لإلفة نفوسهم الطاعات، ومن ثم فإن وقعت منهم مخالفة فبتعمّل وعلاج؛ لأنها خلاف المألوف؛لذا ناسب (يتّبع) وجاء على ما يناسب معنى ونظماً وإطالة مراعاة لسياق الحال ، فلما عرض الله قصة حادثة الإفك وكيفية صياغتها وانتشارها، وكيفية تلقي المؤمنين لها وما كان ينبغي عليهم،

---

[١٦٠] – ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه من آي التنزيل : لأحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، تحقيق: د. محمد كامل أحمد، دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ، ٢/١٩٠

[١٦١] – السابق : ٢/ ١٩٢ .

وأثرها على المجتمع، فلما فصّل وزاد في ذلك قابله زيادة في صيغة الفعل ولإفادة المبالغة.

١٤- مفردة (يأتل) :

جاءت هذه المفردة في قوله تعالى "ولا يأتل ألو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله " واختلف المفسرون[١٦٢] في معناها على وجهين:

الأول : بمعنى يحلف ، وزنه يفتعل من الألّية وهو اليمين ، ويقال: ألّتلى يألتلي إذا حلف ومنه قوله تعالى (للذين يألون من نسائهم) وآلى يؤلي إيلاء: حلف ، وتألّى وألتلى مثله... ومنه قوله تعالى: (ولا يأتل ألو الفضل منكم والسعة)، و الآلية: اليمين وجمعها (ألايا) ".[١٦٣]

الثاني : بمعنى لا يقصّر ولا يأل جهداً ولا يدع أن ينفق ويتصدق ، فهو من ألَوْت وكذا إذا قصرت، ومنه: لم آل جهداً: لم أقصّر أي :ما تركت طاقتي ، وكذا منه قوله تعالى: (لا يألونكم خبالاً) .

لكن الأولى هو الوجه الأول لمرجحات أهمها :

سبب النزول :

فنظم الآية وسياقها يتحدث عن أبي بكر رضي الله عنه بعد نزول القرآن ببراءة السيدة عائشة رضي الله عنها ، وقد عرف أن مسطح بن أثاثة كان ممن خاضوا فيه ، وهو قريب أبي بكر (ابن خالته) ومن فقراء المهاجرين ، وكان أبو بكر رضي الله عنه ينفق عليه، فأقسم على نفسه لا ينفع مسطحاً بنافعة أبداً بعدما قال في عائشة ما قال، فلما نزلت الآية موضع الدراسة أعاد أبو بكر له وقال: بلى والله إني لأحب أن

---

١٦٢ – الكشاف : ٢٧٩/٤، التفسير الكبير : ٢٨٦/١١، التحرير والتنوير : ١٨٨/١٨ .

١٦٣ – مختار الصحاح : ص٢١ .

يغفر الله لي، والله لا أنزعها عنه أبداً ، ووقع عند بعضهم أنه صار يعطيه ضعف ما كان يعطيه قبل ذلك.

اختلاف القراءات:

ويؤيد ذلك قراءة عباس بن عياش بن أبي ربيعة، وأبي جعفر، وزيد بن أسلم (يتألّ) [١٦٤] بتقديم التاء وتأخير الهمزة بمعنى : يتفعّل، من الألية . [١٦٥]

سياق النص :

حيث إن " لا تحذف في اليمين كثيراً.قال الله تعالى " ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا " وقال امرؤ القيس :

فقلت يمين الله لا أبرح قاعداً ولو قطّعوا رأسي إليك وأوصالي

أي لا أبرح" . [١٦٦]

جمهور المفسرين :

إن جميع المفسرين الذين كانوا قبل أبي مسلم فسروا اللفظة باليمين وقول كل واحد منهم حجة في اللغة فكيف الكل .

١٥- مفردة (الفضل) :

يأتي الفضل في الآيات موضع الدراسة على هيئتين :

الأولى: يكون اسماً لما يتفضل به من عطاء فيكون في معنى المنة من الله سبحانه وتعالى لعباده فيعتبر كالمضاف إلى المفعول، أي فضل الله عليكم، وفيه دلالة على أن ثواب الأعمال فضل من الله؛لأن طاعة الله واجبة على العباد فإذا أدوها

---

[١٦٤] – المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها : أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، وزارة الوقاف– المجلس العلى للشؤون الإسلامية، ١٩٩٩م، ط١، ١٠٤/٢ .

[١٦٥] – جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ٢٢٣/١٧ .

[١٦٦] – مفاتيح الغيب : ١٨٤/١١، ١٨٥ .

فقد فعلوا ما لا يسعهم إلا فعله ، فلو لم يثابوا على ذلك لم يكن عدم إثابتهم ظلماً .

الأخرى: يكون مصدراً بمعنى الشرف والتفوق على الغير فيكون بمعنى فضلهم، ويعتبر كالمضاف إلى الفاعل ، فيكون فضلهم أي شرفهم وبركتهم وهذا المعنى في قوله تعالى" ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يأتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفو وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم . " النور: ٢٢

وقد اختلف المفسرون في معنى الفضل في هذه الآية على وجهين [١٦٧] :

الأول: أنه بمعنى الزيادة في الخير والكمال الديني

الثاني : أنه بمعنى الغنى والسعة في المال

لكن الأرجح أن الفضل بمعنى الزيادة في الخير والكمال الديني لمرجحات من أهمها:

رأي جمهور المفسرين :

فعدد كبير منهم ذكر أن الفضل هو مدح في الدين وهو الفضل المطلق لأفضل الصحابة على الإطلاق.يقول ابن عاشور: "والفضل:أصله الزيادة فهو ضد النقص ، وشاع إطلاقه على الزيادة في الخير والكمال الديني وهو المراد هنا .ويطلق على زيادة المال فوق حاجة صاحبه وليس مراداً هنا لأن عطف والسعة عليه يبعد عن ذلك "، ويقول أبو السعود: "أولو الفضل أي في الدين وكفى به دليلاً على فضل الصديق رضي الله عنه" .[١٦٨]

---

[١٦٧] فتح القدير : ٢٠/٤، البحر المحيط : ٢٩٨/٨، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : ١٧٣/٤، تفسير السمعاني : ٥١٤/٣ .

معالم التنزيل : ٦٤٧/٥ .

[١٦٨] -إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : ١٦٥/٦ .

سياق النص:

فنظم الآية وسياقها يتحدث عن قصة أبي بكر رضي الله عنه ومسطح بن أثاثة كما بينا سابقاً، وليس الفضل هنا هو الغنى والسعة في المال ، أيعقل أن يمدح الله إنساناً بالدنيا ؟ فلا يليق بالله أن يمدح أحد عباده بدنيا هو أعطاه إياها ، ولو أريد به الفضل في الدنيا ، لكان قوله تعالى: (والسعة) تكريراً لا معنى له ، فإذا كان الفضل هو الغنى والسعة هي الغنى فالتكرار لا معنى له ، فلما أثبت الله الفضل المطلق وجب أن يكون أفضل الصحابة هو أبو بكر رضي الله عنه.

وفيه دليل على شرفه وفضله ، وعلو منزلته عند الله سبحانه وتعالى في الدين والعلم والأخلاق ، دل على ذلك السياق حيث جاء الخطاب بصيغة الجمع ، والمراد به الصديق -رضي الله عنه-بدلالة سبب النزول؛وذلك لتعظيمه وتكريمه وإنزاله منزلته الرفيعة لنصرته الدين ونصرة رسوله صلى الله عليه وسلم ، يقول الإمام فخر الدين الرازي " : فانظر إلى الشخص الذي كنّاه الله سبحانه وتعالى مع جلاله بصيغة الجمع وكيف يكون علو شأنه عند الله[١٦٩] ."

ومما يسند هذه الدلالة وصحة القول بها أنه قال : (أولو الفضل منكم) فكلمة (مِن) للتميز، فكأنه سبحانه ميزه عن كل المؤمنين بصيغة كونه أولى فضل ، والصفة التي بها يقع الامتياز يستحيل حصولها في الغير ، وإلا لما كانت مميزة له بعينه ، فدل ذلك على أن هذه الصفة خاصة فيه لا في غيره البته. " [١٧٠]

كما أن الألف واللام في (الفضل والسعة) يفيدان العموم " ويدلان على أن كل الفضل وكل السعة لأبي بكر كما يقال: فلان هو العالم يعني قد بلغ في الفضل أن

---

[١٦٩] -مفاتيح الغيب : ٢٨٦/١١

[١٧٠] - السابق .

صار كأنه كل العالم وما عداه كالعدم. " [١٧١]

ومما يؤكد-أيضاً- فضل أبا بكر وعلو منزلته في الإسلام وأن معنى الفضل في الآية هو العلو في الدين قرينة لفظية سياقية تتضح في أن الله سبحانه وتعالى أعطاه وصفين مثل ما أعطى للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال للصديق"وليعفوا وليصفحوا" وقال للنبي " : فاعف عنهم واصفح " فمن هذا الوجه يدل على أن أبا بكر ثاني اثنين لرسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع الأخلاق حتى في العفو والصفح .[١٧٢]

كما أن فيه وجوه منها " :أن العفو قرينة التقوى وكل من كان أقوى في العفو كان أقوى في التقوى ، ومن كان كذلك كان أفضل لقوله تعالى" إن أكرمكم عند الله أتقاكم" الحجرات: ١٣ . ومنها: أن العفو والتقوى متلازمان فلهذا السبب اجتمعا فيه ، أما التقوى فلقوله تعالى " وسيجنبها الأتقى" الليل: ١٧، وأما العفو فلقوله تعالى: (وليعفوا وليصفحوا)". [١٧٣]

والذي يقوي هذا المعنى السياقي بدلالة قوله " ألا تحبون أن يغفر الله لكم" فإنه سبحانه ذكر أبا بكر بكناية الجمع على سبيل التعظيم ، كم أنه سبحانه علق غفرانه على إقدامه على العفو والصفح فلما حصل الشرط منه وجب ترتيب الجزاء عليه ، ثم جاء قوله(يغفر الله لكم) بصيغة المستقبل وأنه غير مقيد بشيء دون شيء فدلت الآية على أنه سبحانه قد غفر له في مستقبل عمره على الإطلاق فكان من هذا الوجه ثاني اثنين لرسول الله صلى الله عليه وسلم .في قوله تعالى " : ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر "الفتح:٢ ". [١٧٤]

---

[١٧١] – السابق: ٢٨٧/١١ .

[١٧٢] – السابق .

[١٧٣] – السابق .

[١٧٤] – السابق : ٢٨٨/١١ .

ويسند هذا المعنى أنه سبحانه وتعالى وصف نفسه بكونه غفوراً رحيماً فقال: (والله غفور رحيم)" والغفور مبالغة من الغفران فعظّم أبا بكر حيث وصفه بمبالغة الغفران ، والعظيم إذا عظّم نفسه ثم عظّم مخاطبه فالعظمة الصادرة منه لأجله لابد وأن تكون في غاية التعظيم. " [١٧٥]

ومن هنا نجد أن ما يحدد معنى لفظة (الفضل) بمعنى علو المنزلة والكمال الديني هو السياق فهو القرينة الذي يوجه اللفظة على حسب حاجتها منه وهو القرينة التي تشخص الدلالة وتفرض قيمة واحدة بعينها على اللفظة .

١٦- مفردة (يرمون) :

أصل الرمي هو القذف، وإن كان يقال في العيان كالسهم والحربة والحجر وما أشبه ، واستعير هذا المعنى وأصبح مجازياً حينما يقذف إنسان امرأة بلسانه ويتهمها بالزنا ، فيقال كناية عن الشتم والقذف . " والرمي حقيقة : قذف شيء من اليد.وشاع استعماله في نسبة فعل أو وصف إلى شخص. " [١٧٦]

والآية وإن لم تذكر الرمي بخصوص الزنا مما قد يشعر شمولها الرمي بغيره كالسرقة ، وشرب الخمر وارتكاب الموبقات... إلا أن السياق يدل على الاختصاص بالزنا بدلالة :

رأي جمهور المفسرين :

فقد أجمع المفسرون على أن المراد برمي المحصنات في الآية رميهن بالزنا مما يدل على اعتنائهم بالبعد السياقي في التفسير .

سياق النص :

فالرمي بيان لحالة الفاسق الذي يريد أن يصل إلى المرأة العفيفة فتتكسر كل محاولاته وتطيش سهام إغراءاته ومحاولاته فلا يبقى له إلا أن يقذفها نكالاً وحقداً ،

---

[١٧٥] – السابق .

[١٧٦] – التحرير والتنوير : ١٥٩/١٨ .

ومن ثم جاء القذف بتعبير الرمي لما فيه من كشف لحالة الترصد التي يريدها الرامي وحالة الغيظ التي تعتوره فيرمي قذفه لعله ينال منه بعدما عجز في الحقيقة .

فكأن الكلمة المقذوفة في حق العفيفة حجر صلد يخدش ويؤذي ويميت؛ولأن كلمة الرمي شديدة الوقع ولأنها قدّ تقذف باستهتار ولا مبالاة كان العقاب الصارم الذي شرعه القرآن حتى يظل اللسان عفيفاً ، وحتى تظل المحصنة خلف حصن العفة لا يؤذيها حاقد أو فاسق .

كما أن سياق الآيات يتحدث عن الزنا منذ بداية السورة ، حيث ذكر أحكام القذف عموماً ثم ذكر قذف أم المؤمنين عائشة خصوصاً ، وجاء بتعظيم أمر الزنا عموماً كأنه مقدمة لحادثة الإفك ، كما بينت حكم القذف بالنسبة للمحصنات والزوجات، ثم أورد بعدها نموذجاً يكشف به شناعة الأمر بذكر حادثة كانت سبب نزول الآيات وهي حادثة الإفك .

والذي يسند إيجاد هذه الدلالة إسناد الفعل (يرمون) إلى الاسم الموصول المذكر (الذين) توحي باختصاص طرف القذف بالرجال " واسم الموصول ظاهر في إرادة جماعة وهم عبد الله بن أبي بن سلول ومن معه " .[١٧٧]

وتعدية فعل الرمي إلى مفعول بصيغة الجمع المؤنث يوحي باختصاص طرف المقذوف بالنساء ، فهذا يدل على مراعاة قصة كانت سبب نزول الآية، ويشير إلى أن الرمي هو القذف بالزنا .

والذي يؤكد ذلك لفظة (المحصنات) التي تدل على المتزوجات من الحرائر فهي قرينة لفظية تشير إلى أن الرمي هنا هو رمي بالزنا . يزاد على هذا أن الشهداء الأربع في قوله تعالى " لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء" لا تطلب شهاداتهم مجتمعين إلا في الزنا ، كما أن أي اتهام دون الزنا لا يوجب الحد (الجلد) .

---

[١٧٧] – السابق : ١٨/ ١٩١ .

والذي يقوي هذا المعنى لفظة (الغافلات) " اللاتي لا علم لهن بما رمين به ، وهذا كناية عن عدم وقعهن بما رمين به؛ لأن الذي يفعل الشيء لا يكون غافلاً عنه فالمعنى : إن الذين يرمون المحصنات كذباً عليهن ، فلا تحسب الغافلات عن قول الناس فيهن" .[١٧٨]

فهن " الغافلات السليمات الصدور ، النقيات القلوب ، اللاتي ليس فيهن دهاء ولا مكر؛لأنهن لم يجربن الأمور ولم يرزن الأحوال ، فلا يفطن لما تفطن له المجربات العرافات[١٧٩] "، كما جاء وصفهن بالمؤمنات " لتشنيع قذف الذين يقذفونهن كذباً ؛ لأن وصف الإيمان وازع لهن عن الخنى" . [١٨٠]

والسياق في الآية سياق تهديد ووعيد بدلالة أن عقاب من يرمي المحصنات الغافلات المؤمنات جاء متّسقاً مع هول الموقف وشناعة الفعل والقول الذي يروم السياق بتعيينه من ترهيب السامع وعظم حرمة المحصنات فكان اللعن في الدنيا والآخرة والعذاب العظيم " واللعن في الدنيا التفسيق ، وسلب أهلية الشهادة ، واستيحاش المؤمنين منهم ، وحد القذف ، واللعن في الآخرة: الإبعاد من رحمة الله والعذاب العظيم : عذاب جهنم. " [١٨١]

وإذا كان السياق اللفظي يوحي بذلك علناً فإنه يعد قرينة واضحة وكاشفة لمعنى (يرمون) الذي هو (القذف بالزنا)؛ لأن هذا ينسجم كلياً مع الدلالة العامة للسياق ، ومن ثم حُدِّد معنى اللفظ بقرينة نصية سياقية.

---

[١٧٨] السابق .

[١٧٩] – الكشاف : ٤/٢٨٠ .

[١٨٠] – التحرير والتنوير : ١٨ / ١٩١ .

[١٨١] – السابق .

١٧- مفردة (دين) :

جاءت هذه المفردة في قوله تعالى " يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق"، وقد وردت هذه المفردة في القرآن الكريم بأكثر من معنى منه :

- القيامة والحساب والجزاء في قوله تعالى " فما يكذبك بعد بالدين " التين:٧
- الاعتقاد في قوله تعالى "هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون " التوبة : ٣٣
- الطّاعة و الانقياد لله ، أو الملّة في قوله تعالى " إن الدين عند الله الإسلام " آل عمران :١٩
- النظام والحكم في قوله تعالى " ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله" يوسف:٧٦

لكن نجد أن لفظة (دين) في الآية محل الدراسة تدل على الحساب والجزاء؛وذلك لأن الآيات بصدد الحديث عن عقاب الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات يرمونهم إفكاً وبهتاناً فيطعنونهم في عفتهم وطهارتهم ، ومن ثم كان عقابهم وجزاءهم مضاعفاً ومناسباً لجريمتهم، حيث يطردون من رحمة الله في الدنيا والآخرة فوق ما يدخره الله لهم من عذاب عظيم في الآخرة .

وقوله تعالى "يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق " مقرر لما قبله ، حيث أسند إيجاد أن دلالة (الدين) هي الحساب والجزاء، ودعمت صحة القول بها قوله تعالى " يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون " أي : تشهد ألسنة بعضهم على بعض بما عملوا في الدنيا، وقيل تشهد عليهم ألسنتهم بما تكلموا به وأيديهم وأرجلهم بما عملوا في الدنيا، وأن الله سبحانه ينطقها بالشهادة عليهم بغير اختيارهم ، فكل جارحة تشهد عليهم بما عملته ينطقها الله الذي أنطق كل شيء ، فلا يمكنه الإنكار والجحود وذلك من تمام عدله

" فإن قيل قال الله سبحانه ها هنا تشهد عليهم ألسنتهم وقال في موضع آخر (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم) فما وجه التطبيق؟ قلنا : المراد بقوله نختم على أفواههم أنهم لا ينطقون بإرادتهم وذلك لا ينافي شهادة الألسنة عليهم من غير اختيارهم. " [١٨٢]

فالآية مسوقة لتقرير العذاب العظيم مبينة لوقت حلوله، وتعيين اليوم لزيادة التهويل بما فيه من العذاب الذي لا يحيط به وصف، دلّ على ذلك :

(يومئذ) أي : يوم القيامة يوم أن تحدث هذه الشهادة يوم الحساب والجزاء، وهي ظرف والتنوين عوض عن الجملة المضافة إليها.. (ويوفيهم الله دينهم الحق) أي يوم إذ تشهد عليهم أعضاؤهم المذكورة بأعمالهم القبيحة يعطيهم الله تعالى جزاءهم المطابق لمقتضى الحكمة وافياً تاماً، والكلام استئناف تام مسوق لبيان ترتيب حكم الشهادة عليها متضمن لبيان ذلك المبهم المحذوف فيما سبق على وجه الإجمال، وجوز أن يكون (يومئذ) بدلاً من (يوم تشهد) من جوز تعلق ذلك بيوفيهم . [١٨٣]

١٨- مفردة (الخبيثات / الطيبات) :

جاءت في قوله تعالى " الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم "

واختلف المفسرون في تفسير هذه الآية على وجهين: [١٨٤]

---

[١٨٢] – التفسير المظهري : محمد ثناء الله المظهري، تحقيق: غلام بني النفوس، مكتبة الرشدية، باكستان ، ١٤١٢هـ، المكتبة الشاملة، ٦ / ٤٨٣ .

[١٨٣] – روح المعاني : ٣٩٠/١٣ .

[١٨٤] – تفسير القرآن العظيم :أبوالفداء إسماعيل بن عمرو ابن كثيرالقرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٩٩م، ٣/ ٢٧٨ .، الجامع لإحكام القرآن : ٢١١/١٢، معالم التنزيل : ٦/ ٢٨

الأول : هي صفات للكلمات والفعلات والأقوال ، فيكون معنى الآية أن الخبيثات من الأقوال والأفعال لا تليق إلا بالخبيثين من الناس، والطيبات من الأقوال والفعال لا تليق إلا بالطيبين من الناس ، فالطيبون والطيبات من الناس منزهون عن أن تلصق بهم القوال والفعال التي يقولها عنهم الخبيثون أو ينسبونها إليهم، وهو قول ابن عباس وأكثر المفسرين.

الثاني : يجري على اعتبار أن الموصوفات لهذه الصفات هم الأشخاص والذوات فيكون معنى الآية : أن الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، وهكذا الطيبات من النساء للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من النساء .

وقد يكون الرأي الأول هو الراجح بدلالة أن السياق اللغوي ذكر الصفة ولم يذكر الموصوف، أو أن السياق العام سياق قذف ففيه كلمات ورمي بالكلمات قال تعالى " إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم " وفيه قذف المحصنات الغافلات قال تعالى " إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم " فالسياق يحمل كثيراً هذا المعنى .

ولكن الرأي الثاني هو الأرجح ؛ وذلك لأكثر من اعتبار طبقاً للسياق اللفظي فهناك :

- سياق الآيات العام الذي تقع فيه الآية في آخر حادث الإفك والذي يفرضاً نوعاً من التوافق والتناسب بينهما .
- دخول حرف الجر اللام بمعنى الاستحقاق ، ولام الاستحقاق هي اللام الداخلة بين معنى وذات، وهي خافضة لما يتصل بها كما تختص لام الملك . [١٨٥]

[١٨٥] – الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل : بهجت عبد الواحد صالح، دار الفكر، بيروت، ط١، د.ت، ١٩/٨

- الإشارة المبتدأ بها في الإخبار بالتبرئة "أولئك مبرءون مما يقولون" وهي إشارة من شأنها أن تنصرف – مع ملاحظة الإخبار عنها – إلى أشخاص وذوات وليس إلى أقوال وأفعال، فاسم الإشارة عام يشير إلى الطيبين من الرجال والطيبات من النساء، وأشير إليهم بأولئك لبيان درجة تعظيم الطيبين والطيبات بالبعد .
- ثم إن التبرئة الواردة هنا والتي هي غاية الآية ومنتهاها لا يتصور ورودها إلا على من يمكن في العقل اتهامهم بالخطأ والانحراف، أو الاستدلال على طهرهم وبراءتهم كالأشخاص والذوات .
- رأي جمهور المفسرين في أن الآية " نزلت في عائشة رضي الله عنها حين رماها المنافقون فبرأها الله من ذلك ، وكان ابن أبي هو الخبيث ، وكان هو أولى بأن تكون له الخبيثة ويكون هو لها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم طيباً فكان أولى أن تكون له الطيبة، وكانت عائشة طيبة وكانت أولى بأن يكون لها الطيب " . [١٨٦]

فالله سبحانه يختار لكل فئة ما يناسبها ويليق بها طهراً وطيباً ، أو دنساً وخبثاً ، فلا يمكن أن يختار خبيثة دنسة لأطيب الطيبين، وهذا يتماشى مع القول بأن الزواج يقوم على مبدأ التكافؤ حتى لا يستعلى طرف على آخر ، ومن هذا التكافؤ قوله تعالى في هذه الآية ، فالذين دارت عليهم حادثة الإفك وخاض الناس في حقهم مبرءون مما يقال عنهم بدليل هذا التكافؤ الذي ذكرته الآية، فمن أطيب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فلابد أن تكون عائشة

[١٨٦] – تفسير القرآن العظيم : ٢٧٨/٣ .

طيبة تكافئ رسول الله ؛ لذلك برأها الله مما يقول المفترون، فالنفوس المؤمنة لا تمتزج ولا تلتئم مع النفوس الخبيثة ولا ترضى بالخبث [١٨٧] .

وأشير بأولئك لبيان درجة تعظيم أولئك الطيبين والطيبات بالبعد[١٨٨]، ثم زاد الله سبحانه وتعالى على ذلك أن لهم مغفرة في الدنيا ونعيم كريم نفيس في جنسه في الجنة، دل عليه تنكير المغفرة والرزق للتعظيم والتكثير .

ومن ثم فكل ما سبق يدل على أن اعتبار الموصوفات لهذه الصفات هم الأشخاص والذوات وليس صفات للكلمات والأفعال والأقوال والله أعلم .

---

[١٨٧] – التحرير والتنوير : ١٥٦/١٨، البحر المحيط : ٤٤٠/٦،

[١٨٨] – جواهر البلاغة في المعاني والبين والبديع:السيد أحمد الهاشم، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م، ص ١٠٩.

المحور الثانى

أثر السياق في البناء التركيبي

لآيات حادثة الإفك

يقوم السياق بدور مهم في تحديد الدلالة الوظيفية للوحدات التركيبية ، فالسياق هو المعنى الذي يؤديه النص، ولا ينكر أن " دلالات السياق تجعل الجملة ذات الهيئة التركيبية الواحدة- بمفرداتها نفسها – إذا قيلت بنصها في مواقف مختلفة تختلف باختلاف السياق الذي ترد فيه مهما كانت بساطة الجملة" . [١٨٩]

ومن هنا يؤكد اللغويين على ترتيب الكلمات داخل السياق لغرض فهم المعنى، وأغراض الكلام التي تكشف عن جانب مهم من موقف المتكلم؛ "لأن التركيب تختبئ في خصائصه وأحواله إشارات ودلالات مختلفة، وأن السياق هو الذي يستخرج من هذه الخصائص ما تقتضيه، وكأن التركيب النفيس أشبه بقطعة من معدن نفيس تعطي ألوانا كثيرة كلما أدرتها إدارة جديدة، والسياق هو القوة التي تحرك هذه القطعة لتشع ألوانه ما يراد إشعاعه ، فالسياق النحوي شبكة من العلاقات النحوية تقوم كل علاقة فيها عند وضوحها على إضاءة المعنى، وقد يعول وضوح المعنى وإنتاج الدلالة على التآخي والتضافر بين قرائن السياق النحوي" . [١٩٠]

ويظهر أثر السياق النحوي واضحاً جلياً في بيان الدلالة النحوية ، والسياق النحوي والدلالة النحوية هما عنصران يتفاعلان في الجمل والتراكيب لبيان ما فيها من دلالات وظيفية " فكما يمد السياق النحوي العنصر الدلالي في الجملة أو النص

---

[١٨٩] – النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي والدلالي : د. محمد حماسة عبد اللطيف، دار الشروق، ط١، ٢٠٠٠م، ص ١١٣ .

[١٩٠] – أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث: د. توفيق الزيدي، الدار العربية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م، ص٧٣.

بالمعنى الأساسي يمد العنصر الدلالي السياق النحوي ببعض الجوانب التي تساعده على تحديده وتمييزه ، وقد اصطلح بعض المحدثين على هذا التفاعل النحوي والدلالي بـ (المعنى النحوي الدلالي للجملة) " .[١٩١]

وهناك ثلاثة أسس لمنح الجملة دلالتها الخاصة هي : [١٩٢]

- ارتباط الألفاظ بعلاقة نحوية تنتظم بها المعاني المراد التعبير عنها في نص يقوم على قواعد نحوية صحيحة .
- ارتباط الألفاظ بعلاقات سياقية تنتظم بها مفرداته بعضها مع بعض، وتنتظم هي مع ما قبلها وما بعدها في تتابع فكري متناسق يخضع للمعنى العام للنص الكلي .
- وقد يلجأ المتكلم إلى العدول عن العلاقات النحوية المباشرة إلى أساليب بيانية أو بلاغية يرقى بموجبها المستوى الفني لكلامه .

وبناء على هذه الأسس، فإن الدلالة التركيبية تضم ثلاثة أنواع من الدلالات المتآزرة بعضها مع بعض في منح النص حيويته وفاعليته في إيصال المعنى المراد ، وهذه الأنواع هي: النحوية، والسياقية، والبلاغية، وعليه فإن للسياق دوراً في توجيه المعنى التركيبي .

ومن بلاغة النظم القرآني إحكام البناء التركيبي ، وترابط عناصره وأجزائه معجمياً ودلالياً، وفيما يلي جوانب من بلاغة البناء التركيبي لآيات حادثة الإفك ومدى مناسبته للنص .

---

[١٩١] – النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي والدلالي : ص١١٣ .

[١٩٢] – في النحو العربي، نقد وتوجيه: د.مهدي المخزومي، دار الرائد العربي، بيروت–لبنان، ط٢، ١٩٨٦م، ٢٢٦، ٢٢٧ .

١- أسلوب الإنشاء :

الإنشاء هو الكلام الذي يتوقف تحقق مدلوله على النطق به، وهو على قسمين :

الإنشاء غير الطلبي :وهو ما لا يستدعي مطلوباً ، إلا أنه ينشئ أمراً مرغوباً في إنشائه ، وله أنواع وصيغ تدل عليه منها: جملة أمر التكوين وهي لفظ(كن) ، وإنشاء العقود ، وإنشاء المدح والذم، وإنشاء القسم، وإنشاء التوجع أو التفجع ، أو الترحم، أو تقبيح الحال " . [١٩٣]

الإنشاء الطلبي : وهو محط عناية النحاة والبلاغيين أكثر من غير الطلبي؛لتنوع دلالاته وخروجها من مقتضى ظواهرها إلى دلالات أخرى يقتضيها السياق والمقام. وعرفوه بقولهم: "هو ما يستدعي مطلوباً غير حاصل في اعتقاد المتكلم وقت الطلب، ويكون بأنواع من الكلام: (الأمر، والنهي، والتحذير، والإغراء، والتمني، والترجي، والدعاء ، والاستفهام) " . [١٩٤]

ويتميز أسلوب الإنشاء بكونه يتطلب من المتلقي إصدار فعل تجاه السياق فدائرة الحدث فيها ترقب وانتظار، فضلاً عن أنه الأنسب لمقام التوجيه والإرشاد وتربية النفوس وتهذيبها ومن ثم تربية الجماعة والأمة، ففي موقف كهذا الموقف الذي عاشه المسلمون وعانوا فيه مرارة فتنة الإفك؛ لتناوله بيت النبوة الطاهر وعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرض صديقه الكريم أبي بكر رضي الله عنه ، بل لما فيه الطعن على كل المسلمين والتهديد لنظامهم الخلقي العفيف الذي أسسه الرسول وأسس قواعده بين أفراد المسلمين، فكان دعامة تفوقهم على أعدائهم وسبب نصرتهم عليهم، فهم في أمسّ الحاجة إلى ما يوضح لهم السبيل وكيفية التعامل مع الموقف .فهم في

---

[١٩٣] – البلاغة العربية، أسسها، وعلومها، وفنونها: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم ، دمشق، ط١، ١٩٩٦م، ص ٢٢٤-٢٢٧

[١٩٤] – السابق ص ٢٢٨ .

أمس الحاجة إلى تزكية وتطهير النفوس، وتهدئة الخواطر وإزالة الغشاوات والآثار التي انعقدت في سماء المجتمع الإسلامي من جرّاء هذه الفتنة العمياء .

ومن ثم جاء **أسلوب الأمر** هادياً ومرشداً لهم في قوله تعالى " وليعفوا وليصفحوا " فقد جاء باستخدام الأداة وهي اللام الداخلة على الفعل المضارع والفاعل الضمير .والأمر كما هم معلوم هنا للوجوب والإلزام ، فعلى ذكر التزكية والتطهير"ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء " يستمر السياق القرآني في إزالة ما علق بنفوس كثير من الصحابة من جفوة وقسوة سببتها فتنة الإفك ، وما كانت لهم من قبل ليطهرهم الله منها، ويردهم إلى ما كانوا عليه من برّ وتراحم وإحسان.

ولما كان أبو بكر رضي الله عنه من صفوة الصحابة والقدوة والمثل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء الأمر إليه ولأصحابه كما ورد في سبب النزول إلى التجاوز عن سيئات المسيئين والصفح والغفران عنهم ، وهكذا يذكر الله سبحانه أبا بكر والمؤمنين معه من ذوي الفضل والسعة ألا يقابلوا السيئة بالحسنة، وهذه منزلة عالية عند الله لا ينالها إلا من أراد لهم الكرامة والإحسان ممن يلتزمون الأدب الإسلامي في العفو عند الاقتدار والصفح عن تمكن واستعلاء .

وصيغة الأمر تدل على التجدد والاستمرارية، خاصة وأنه يأتي في سياق الأحكام، فالآية تخاطب الأجيال في مختلف الأزمنة ، وعبر جميع العصور .

*وقد يرد الأمر بلفظ الخبر في جملة اسمية أو فعلية لفائدة يخرج إليها المعنى في الخطاب، كالتأكيد على الأمر والفعل، وفي ذلك يقول الرازي ": وإنما يخرج الخبر بمعنى الأمر ، ويخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في الإيجاب ، فيجعل كأنه وجد فهو يخبر عنه " .[١٩٥]

---

[١٩٥] – مفاتيح الغيب : ١٨/ ٤٦٥ .

يتضح ذلك في قوله تعالى " الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات " فهذه الصيغة هي صيغة خبرية يراد بها الإنشاء (الأمر)، فهذه الآية في الحقيقة آية أمر ، والعلماء قالوا: يجب أن نظيف كلمة ينبغي أي ينبغي أن يكون الطيبون للطيبات إذا زوجتم أو تزوجتم...أي ينبغي أن يكون الطيبون للطيبات، أي ليس هذا حكماً تكوينياً، ولكن أمر تكليفي ، أي يا عبادي من أجل صالح بناتكم وشبابكم احرصوا أن يكون الطيبون للطيبات .

أما **أسلوب النهي** فجاء في قوله تعالى " إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم " فالخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولآل أبي بكر الصديق ولكل المؤمنين الذين ساءهم هذا التصرف ، فإن شتم عائشة كان راجعاً إلي النبي فيسوءه ويسوء جميع المؤمنين ، والخطاب يحمل معنى التسلية والتصبير للمؤمنين ، بل وزيادة تكريم لهم ، حيث يظهر كرامتهم على الله وينزل على رسوله في براءتها وتعظيم شأنها وتهويل الوعيد لمن تكلم بالإفك ما يتلى إلى قيام الساعة .

وقد جاء أسلوب النهي بالفعل (حسب) الذي يراد به الاعتقاد الراجح ومعناه الظن ليدل على الاستمرار لمن تضمن ذلك تبرئة أم المؤمنين ونزاهتها والتنويه بذكرها، حتى تناول عموم المدح زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، ولما تضمن من بيان الآيات المضطر إليها العباد، والتي ما زال العمل بها إلى يوم القيامة فكل هذا خير عظيم ولولا مقالة أهل الإفك لم يحصل ذلك مصداقاً لقوله تعالى " هو خير لكم " . [١٩٦]

والظاهر أن الضمير في (لا تحسبوه) عائد على الإفك ، وجاز أن يعود على القاذف فليس كل ما يحدث لنا نحسبه بالأمر النافع لنا سواء في أمور ديننا وأمور دنيانا ، كما أنه ليس -بالضرورة-كل ما يحدث لنا ولا نحبه أمر ضار لنا في أمور

---

[١٩٦] – الفروق في اللغة: ص٣٧ .

ديننا وأمور دنيانا، يقول سبحانه وتعالى: البقرة :٢١٦ "وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم " .[١٩٧]

*وجاء أسلوب النهي -أيضاً- في قوله تعالى " يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر " وهو نهي عن اتباع مسالك الشيطان ومذاهبه، أي لا تسلكوا طرائقه التي يدعوكم إليها لأنه يأمر بكل قبيح من الأقوال والأفعال وكل ما تنكره العقول السليمة يقول ابن عاشور " :هذه الآية نزلت بعد العشر الآيات المتقدمة، فالجملة استئناف ابتدائي ووقوعه بعد الآيات العشر التي في قضية الإفك مشير إلى أن ما تضمنته تلك الآيات من المناهي وظنون السوء ومحبة شيوع الفاحشة كله من وساوس الشيطان، فشبه حال فاعلها في كونه متلبساً بوسوسة الشيطان بهيئة الشيطان يمشي ، والعامل بأمره يتبع خطى ذلك الشيطان" .[١٩٨]

فلقد بين الله سبحانه بهذا النهي أن لكل معصية مراحل تسبقها ، وكذلك تتبعها وأن الاتهام بالزنا له مراحل ، ولا يرضى إبليس إلا بأن تسلك جميع المراحل ، وهو استدراج منه للمؤمن حتى يصل به الحال إلى صريح الكفر والشرك .

*أما النهي في قوله تعالى "ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله " فهو نهي لأهل الفضل في الدين نظراً إلى منزلتهم وفضلهم ، وإلا فترك بذل ماله في مقابلة الإيذاء ليس بمجرم موثم منكم يعني أبا بكر وأمثاله وفيه دليل على فضل أبي بكر وشرفه ."وهو ليس نهي زجر وتحريم بل هو نهي عن ترك الأولى كأنه سبحانه وتعالى قال لأبي بكر اللائق بفضلك وسعة همتك أن لا تقطع هذا فكان هذا إرشاداً إلى الأولى لا منعاً عن المحرم" .[١٩٩]

---

[١٩٧] – التحرير والتنوير: ١٤٦/١٨ .

[١٩٨] – السابق : ١٨٦ ، ١٧٨ .

[١٩٩] – مفاتيح الغيب: ٢٨٩/١١ .

وجملة النهي هنا معطوفة " على جملة (لا تتبعوا خطوات الشيطان) عطف خاص على عام للاهتمام به؛ لأنه قد يخفى أنه من خطوات الشيطان، فإن من كيد الشيطان أن يأتي بوسوسة في صورة خواطر الخير إذا علم أن الموسوس إليه من الذين يتوخون البر والطاعة، وأنه ممن يتعذر عليه ترويج وسوسته إذا كانت مكشوفة". [٢٠٠]

وللشيخ الشعراوي لطيفة في هذا النهي حيث يقول: "تلحظ أن الآيات تتحدث عن حد القذف وما كان من حادثة الإفك، ثم ذكرت آية العتاب لأبي بكر في مسألة الرزق، ثم عاد السياق إلى القضية الأساسية : قضية القذف، فلماذا دخلت مسألة الرزق في هذا الموضوع ؟ قالوا: لأن كل معركة فيها خصومة قد يكون لها آثار تتعلق بالرزق، والرزق تكفل الله به لعباده، لأنه سبحانه هو الذي استدعاهم إلى الوجود، سواء المؤمن أو الكافر، وحين تعطي المحتاج فإنما أنت مناول عن الله، ويد الله الممدودة بأسباب الله، والحق تبارك وتعالى يحترم ملكية الإنسان مع أنه رازقه ومعطيه، لكن طالما أعطاه صار العطاء ملكاً له، فإن حثه على النفقة بعد ذلك يأخذها منه فرضاً ". [٢٠١]

وأسلوب النداء جاء في قوله تعالى " يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان " والناء في الآية للمؤمنين في كل زمان ومكان ليفيد التنبيه إلى ما يجب عليهم أن يقوموا به من المطالب المذكورة في الآية بعد النداء .

وتخصيص المنادى هنا بصفة الإيمان دون غيرها من صفاتهم فهذا من باب الحض والتهييج على التزام المطلوب، فإن من كان بهذه الصفة وتلك المنزلة عند الله من الوجود المعتبر والعبودية الحقة لله تعالى لا يجوز له النزول عن ذلك باتباعه غير ما أمر به الله مما يأمر به الشيطان والطواغيت . [٢٠٢]

---

[٢٠٠] – التحرير والتنوير: ١٨٨/١٨ .

[٢٠١] – الخواطر : ١٦/ ١٠٢٣٤ ، ١٠٢٣٥ .

[٢٠٢] – مفاتيح الغيب : ١١٦/٢٧ .

وفي اختيار (يا) للنداء وهي لنداء البعيد للدلالة على أن المنادى فيه شيء من البعد بالمعصية والذنوب عن المنادى سبحانه وتعالى، فعليه أن يصغي لما ينادي عليه به ليزداد بهذه الطاعة قرباً .

وجاء تعريف المنادى باسم الموصول دلالة على أنه المعروف بالصلة التي هي الإيمان ، فإن الإيمان فعلاً من أفعالهم ، وكان هذا الإيمان هو جل ما يعرف به هذا المنادى، فهو شرفه الذي عليه أن يستمسك به، فعليه العناية بفقه ما هو آت من بعد ذلك النداء من أمر ونهي [٢٠٣] .

وجاء أسلوب العرض والتحضيض في الآيات موضع الدراسة في عدة مواضع منها :

* في قوله تعالى " لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين" فجاءت لولا هنا تحضيضية تأكيداً للتوبيخ والتقريع ومبالغة في معاتبة المؤمنين وهي بمعنى هلّا :[٢٠٤] أي هلا ظننتم بأمثالكم من المؤمنين الذي هم كأنفسكم خيراً حين سمعتم الإفك .ولمَ لمْ تقولوا حينئذ هذا إفك ظاهر؟ فكيف بالصديقة ابنة الصديق ؟ .

أي كان ينبغي للمؤمنين حين سمعوا مقالة أهل الإفك أن يقيسوا ذلك على أنفسهم وإذا كان ذلك يبعد فيهم فهو في أم المؤمنين أبعد[٢٠٥] . وفيه معنى العتاب لجميع المؤمنين .

وكان حق الكلام لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيراً فعدل عن الخطاب إلى الغيبة وعن الضمير إلى الظاهر مبالغة في التوبيخ والزجر، وإشعاراً بأن الإيمان

---

[٢٠٣] – شذرات الذهب دراسة في البلاغة القرآنية: محمود توفيق محمد سعد، ط١، ١٤٢٢هـ، ص٣٥.

[٢٠٤] – معاني القرآن وإعرابه: ٣٦/٤.

[٢٠٥] – فتح القدير: ١٥/٤ .

يقتضي حسن الظن بالمؤمنين وأكلف عن الطعن فيهم وذب الطاعنين منهم كما يذبون عن أنفسهم. فالالتفات أو الانزياح (بالمفهوم الحديث) يمنح لاستعمال الضمائر خصوصية تؤكد وظيفتها في الاختصار، وفي الكفاءة النصية لأن طبيعة الالتفات تجعله يقول ما لا تقوله كلمات كثيرة، أنه تجسيد المبالغة في عتاب الله عز وجل للمخاطبين، ففي التحول عن مخاطبتهم (سمعتموه) إلى الإخبار عنهم (ظن المؤمنون) إشعار لهم أنهم حين أفاضوا في هذا الحديث قد تنكبوا النهج الأمثل الذي تقتضيه صفة الإيمان .

يقول أبو حيان " : هذا تحريض على ظن الخير.وعدل بعد الخطاب إلى الغيبة وعن الضمير إلى الظاهر.فلم يجيء التركيب ظننتم بأنفسكم خيراً وقلتم ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات، وليصرح بلفظ الإيمان دلالة على أن الاشتراك فيه مقتضى ألا يصدق مؤمن على أخيه قول عابث ولا طاعن " . [٢٠٦]

*وقوله تعالى " لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك هم الكاذبون" أي: هلا أتى الخائضون على ما قالوا بأربعة شهداء يشهدون على ما قالوا، وهي من تمام ما يقوله المؤمنون، والآية استئناف ثان لتوبيخ العصبة الذين جاءوا بالإفك وذم لهم وتعنيف للذين سمعوا الإفك ولم يجدّوا في دفعه وإنكاره واحتجاجهم بما هو ظاهر مكشوف في الشرع من وجوب تكذيب القاذف بغير بينة . [٢٠٧]

*وقوله تعالى " ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم " والآية معطوفة على قوله تعالى " لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين " ولولا بمعنى هلا وهي هنا للتوبيخ

---

[٢٠٦] – البحر المحيط: ٤٣٧/٦.

[٢٠٧] – التحرير والتنوير: ١٤٤/١٨.

والتندم، أي : هلا قلتم تكذيباً للمخترعين والمشيعين حين سمعتم حديث الإفك ما يليق لنا أن نتكلم بهذ القول، وأن يصدر عنا ذلك بوجه من الوجوه.

*وقوله تعالى " ألا تحبون أن يغفر الله لكم " وألا هنا –أيضاً– للحث والحض والترغيب في هذا الخلق الطيب وهو السعي فيما به المغفرة وذلك العفو والصفح [٢٠٨] فكما تجب أن يغفر الله لك ذنبك؛ فلماذا لا تغفر أنت لمن أساء إليك؟ وكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يصلح ما بيننا، يقول ابن عطية " : قوله تعالى (ألا تحبون) الآية تمثيل وحجة أي كما تحبون عفو الله عن ذنوبكم فذلك أغفر لمن دونكم[٢٠٩] ." وبه قال القرطبي [٢١٠] .

وذكر العسكري فروقاً بين استخدام كلمة (إرادة) وكلمة (محبة)، ولو أسقط كلامه على هذه الآية لظهر جلياً بلاغة القرآن وعلم الله وحكمته في انتقاء الكلمات يقول": إن المحبة تجري على الشيء؛ويكون المراد به غيره وليس كذلك الإرادة تقول : أحببت زيداً والمراد: أنك تحب إكرامه ونفعه، ولا يقال: أردت زيداً بهذا المعنى، وتقول: أحب الله أي: أحب طاعته ولا يقال: أريده بهذا المعنى، فجعل المحبة لطاعة الله محبة له، كما جعل الخوف من عقابه خوفاً منه. وتقول: الله يحب المؤمنين؛ بمعنى أنه يريد إكرامهم وإثابتهم، ولا يقال: إنه يريدهم بهذا المعنى، ولهذا قالوا: إن المحبة تكون ثواباً وولاية، ولا تكون الإرادة كذلك، ولقولهم: أحب زيداً مزية عن قولهم: أريد له الخير، وذلك أنه إذا قال: أريد له الخير لم يبين أنه لا يريد له سوءا أصلاً وكذلك إذا قال: أكره له الخير لم يبين أنه لا يريد له الخير البته."...[٢١١]

---

[٢٠٨] – السابق: ١٨/ ١٨٩.

[٢٠٩] – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ١٧٣/٤.

[٢١٠] – الجامع لإحكام القرآن : ١٨٦/١٢ ، ١٨٧ .

[٢١١] – الفروق اللغوي: ص٢١ .

أما أسلوب التعجب فهو من الجمل الإفصاحية التي تكشف عن موقف انفعالي وتفصح عنه فهو انفعال يعرض للنفس عند الشعور بأمر وقد وردت صيغة التعجب السماعية (سبحانك) مرة واحدة في قوله تعالى " سبحانك هذا بهتان عظيم" أي أتعجب ممن تفوه بهذا الكلام فإنه أمر عظيم وأنزه الله تعالى من أن تكون زوجة نبيه فاجرة.

وهي تعني " تنزه الله تعالى من أن تكون حرم نبيه فاجرة فإن فجورها يرجع بالسوء والسباب إلى الزوج والنبي مبعوث إلى الكفار ليدعوهم فيجب أن لا يكون معه ما ينفرهم عنه، فجاز أن تكون امرأة نبيه كافرة كما كانت امرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام، ولا يجوز أن تكون فاجرة فهذا تقرير لما قبله " ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا " وتمهيد لقوله " هذا بهتان عظيم" أي زور يبهت من يسمع، عظيم لعظم المبهوت عليه " . [٢١٢]

كما يشير التعجب هنا إلى أن الغاضب الأكبر من إشاعة الفواحش والإفك والبهتان هو الله سبحانه فهو الأولى بأن يتوجه إليه بالتوبة من الذين مسهم العذاب .

ويقول الرازي في كلام نفيس" : أما قوله (سبحانك هذا بهتان عظيم) ففيه سؤالان: السؤال الأول : كيف يليق سبحانك بهذا الموضع؟ الجواب من وجوه الأول : المراد منه التعجب من عظم المر، وإنما استعمل في معنى التعجب لأنه يسبح الله عند رؤية العجيب من صانعه ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه . الثاني: المراد تنزيه الله تعالى عن أن تكون زوجة نبيه فاجرة . الثالث: أنه منزه عن أن يرضى بظلم هؤلاء الفرقة المفترين. الرابع: أنه منزه عن أن لا يعقاب هؤلاء القذفة الظلمة السؤال الثاني : لم أوجب عليهم أن يقولوا (هذا بهتان عظيم) مع أنهم ما كانوا عالمين بكونه كذباً قاطعاً ؟ والجواب من وجهين الأول : أنهم كانوا متمكنين من العلم بكونه

---

[٢١٢] – التفسير المظهري: ٤٧٨/٦، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : ٥٠/٤ .

بهتاناً، لأن زوجة الرسول لا يجوز أن تكون فاجرة، الثاني : أنهم لما جزموا أنهم ما كانوا ظانين له بالقلب كان إخبارهم عن ذلك الجزم كذباً. " [٢١٣]

٢- أسلوب التوكيد :

لما كان الجو العام للآيات الكريمات فيه تعظيم الله لذكر الفاحشة بالباطل واتهام الغير بها دون بينة أو دليل واعتبارها جريمة تتعلق بالعرض، والكشف عن شناعة هذا الجرم وبشاعته لما فيه من إثم القاذف وتناوله بيت النبوة الطاهر، نجد المبادرة السريعة إلى تقرير هذا الحادث ووصفه وتحديد الأدوار والمكائد التي قامت بها عصبة الإفك، ثم يسرع بعدها إلى تطمين خواطر المسلمين وتهدئتهم من عاقبة هذا الإفك، ثم يأتي بالوعيد والتهديد على أصحابه، والتربية والتهذيب والتحذير من الوقوع في مثله والتذكير بفضل الله ورحمته .

ولذلك اشتمل البناء التركيبي للآيات على جملة من المؤكدات منها : (الجملة الإسمية، وضمير الفصل، واسم الإشارة، والحرف، وتقديم ما حقه التأخير، ودخول أل، يتجلى ذلك في :

*قوله تعالى " فأولئك عند الله هم الكاذبون " حيث أُكدت الآية بعدة مؤكدات للتنفير من الكذب في هذه القضية منها: [٢١٤]

– اسم الإشارة الدال على البعيد (أولئك) وكأن الكذب دركات متفاوتة فهؤلاء بلغوا أعلى الكذب وهذا من باب القطعية، وهو يدل على تحقير من يتحدث عن السيدة عائشة رضي الله عنها بالسوء، لأن المسند إليه يأتي اسم إشارة للتحقير بالبعد، فاستعمل (أولئك) إشارة للخائضين بالإفك وما فيها من بعد للإيذان ببعد منزلتهم في الفساد ولزيادة تميزهم بصفة الكاذبين .

---

[٢١٣] – مفاتيح الغيب: ١٨١/٢٣ ، ١٨٢ .

[٢١٤] – جواهر البلاغة: ص١٠٩، روح المعاني: ٣٧٠/١٣، التحرير والتنوير: ١٤١/١٨.

– تقديم ما حقه التأخير حيث قدم الظرف (عند الله) على قوله (هم الكاذبون) وتقديم ما حقه التأخير يفيد التأكيد، والتقييد بإضافة الظرف إلى لفظ الجلالة لزيادة تحقيق كذبهم، أي هو في علم الله فإن علم الله لا يكون إلا موافقاً لنفس الأمر فلا يدخله تغيير أو تبديل.

– إدخال (أل) على قوله (الكاذبون) وإدخال الألف واللام على الشيء تدل على عظمته وكبره – ضمير الفصل (هم) للحصر وتمييز الصفة من الخبر، والتأكيد على أنهم هم الكاذبون الكاملون في الكذب وذلك للمبالغة في كذبهم وشناعة وعظم إثمهم عند الله، وكأن غيرهم لا يعد كاذباً لهول ما جاءوا به من الإفك، أو هو كلام مسوق من الله تعالى تقرير لكون ذلك إفكاً فإذا أردت أن تقوي الكلام فأدخل بين طرفيه ضمير الفصل.

– الجملة الاسمية التي تدل على الثبوت والاستقرار والتجدد والحدوث؛ لأن خبرها لم يقع مفرداً .

*قوله تعالى " ويعلمون أن الله هو الحق المبين" فقد أكدت الآية بالحرف (أنّ) وضمير الفصل (هو) الذي يفيد الحصر والتوكيد": أن الله هو الحق الثابت في ذاته وصفاته وأفعاله، المبين المظهر للأشياء كما هي في نفسها، وإنما سمي سبحانه الحق لأن عبادته هي الحق دون عبادة غيره، وقيل: سمي بالحق أي: الموجود لأن نقيضه الباطل وهو المعدوم " .[٢١٥]

ولتأكيد أن الله ثابت موجود بذاته أنه " موجود الأشياء كلها جواهرها وأعراضها، يقوّم الحقائق بأسرها وجودات ما سواه كأنها ظلال لوجوده المتأصل الظاهر، ألوهيته

---

[٢١٥] – إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول: محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: د.شعبان إسماعيل، دار السلام، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ٢١/٤.

لا يشاركه في ذلك غيره ولا يقدر على الثواب والعقاب سواه ".[٢١٦]

*وفي قوله تعالى " ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم " أي أن الله غفر لكم بفضله ورحمته وببركة صحبة نبيه صلى الله عليه وسلم مع الإيمان " وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والإشعار باستتباع صفة الألوهية للرأفة والرحمة وتغيير سبكه، وتصديره بحرف التحقيق لما أن بيان اتصافه تعالى في ذاته بالرأفة التي هي كمال الرحمة والرحيمية التي هي المبالغة فيها على الدوام والاستمرار لا بيان حدوث تعلق رأفته ورحمته بهم . "[٢١٧]

وتوكيد وصف الله سبحانه بأنه رءوف رحيم تنبيه " فيه انتشال الأمة من اضطراب عظيم في أخلاقها، وآدابها، وانفصام عرى وحدتها، فأنقذها من ذلك رأفة لآحادها، وجماعتها، وحفظاً لأواصرها. وذكر وصف الرأفة والرحمة هنا لأنه قد تقدمه إنقاذه إياهم من سوء محبة أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا تلك المحبة التي انطوت عليها ضمائر المنافقين ، كان إنقاذ المؤمنين من التخلف بها رأفة بهم من العذاب ، ورحمة لهم بثواب المتاب " .[٢١٨]

*وفي قوله تعالى " ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر " حيث جاءت إن مكسورة ؛لأنها وقعت محل جملة تفسيرية، والجملة التفسيرية هي الفضلة الكاشفة لحقيقة ما تليه[٢١٩] .

والجملة الفعلية المؤكدة تفيد التنبيه والتحذير على أن للشيطان وسائل تجعل الإنسان يمتثل بأمره، فهو يوسوس للإنسان ولا يملك إلا أن يوسوس، إلا أن الله

---

[٢١٦] – التفسير المظهري: ١٦/٤٨٤.

[٢١٧] – إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: ٦/١٦٤ .

[٢١٨] – التحرير والتنوير: ١٨/١٨٦ .

[٢١٩] – النحو القرآني قواعد وشواهد: د. جميل أحمد مظفر، مكة المكرمة، ط٢، ١٩٩٨م، ص٢٥٧.

سبحانه سمى وسوسته (أمر) لأنه أمر ليس باعتبار المر وإنما باعتبار سرعة تنفيذ المأمور، فالإنسان عندما يسارع في التنفيذ يشبه أنه مأمور بأمر مع أن الشيطان لا يملك أن يأمره، لكن سرعة الإنسان في الإتباع يسميها الله أمراً .

*وهناك آيات تبدأ بالتوكيد الذي يدل على عظمة المتكلم وجلاله وقوة خطابه وصلابته في تأكيد أن ما يقرره الحق سبحانه وتعالى هو الحق الذي لا مرية فيه : وجاء التوكيد في هذه المواضع باسمية الجملة والحرف (إنّ) المكسورة؛ لأنها وقعت ابتداء كلام حقيقي حيث لا يجوز أن يسد المصدر مسدها [٢٢٠] ويكون معناها توكيد النسبة ونفي الشك . [٢٢١]

ومن هذه الآيات :

– قوله تعالى " إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم " وجاء التوكيد هنا لبيان أن صفة الذين جاءوا بالإفك أنهم منكم وأن الإفك ليس شراً لكم بل هو خير، وجاء الكلام بمؤكد واحد لأنهم في مقام معصية فلا يحتاج الكلام إلى توكيد أكبر.

– وقوله تعالى " إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة " وجاء التوكيد ليبين أن كل من يحب من المؤمنين والمنافقين والمشركين أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا وصارت محبتهم لشيوع الفاحشة عادة مستمرة لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة.

والمحبة هنا كناية عن التهيؤ لإبراز ما يجب وقوعه ، وجئ بصيغة المضارع للدلالة على الاستمرارية.، وقوله (أن تشيع)– أيضاً–أفاد فيها المضارع الاستمرارية؛ لأن (أن) تخلص المضارع للمستقبل، وقوله (تشيع الفاحشة) معناها أن يشيع خبرها؛

---

[٢٢٠] – السابق : ٥١٦

[٢٢١] – السابق .

لأن الشيوع من صفات الأخبار والأحاديث، وفي قوله (إن الذين يحبون) جاء التعبير بالمضارع في الصلة للإشارة إلى زيادة تقبيحهم بأنه قد صارت محبتهم لشيوع الفاحشة عادة مستمرة.

– وفي قوله تعالى " إن الذين يرمون المحصنات ... " يؤكد الله سبحانه على شديد وعيده لمن رمى، أو سيرمي المحصنات الغافلات، يقول القشيري " : بالغ في توعده لهم حيث ذكر لفظ اللعنة في شأنهم". [٢٢٢]

٣– أسلوب الشرط :

إن حادثة الإفك قامت على مبدأ السماع من الغير ممن تقولوا على السيدة عائشة–رضي الله عنها– ؛لذا نجد التردد والشك والقلق الطاغي على الآيات واضحاً وجلياً على صعيد الدلالات والتراكيب، فنجد المفردات التي تشير إلى الشك والظن والتردد الذي يكون مصدره السماع، كما نجد أسلوب الشرط الذي يدل على التأرجح وعدم الثبات لحدوث شيء لشيء. وهو أسلوب للربط يقوم على فعل ورد فعل في الغالب .وهو مناسب للسياق كل المناسبة، إذ يبين للمسلمين رد الفعل المناسب للموقف، والذي ينبغي أن يتميزوا به عن غيرهم .

ولقد استخدم البيان القرآني في آيات حادثة الإفك أدوات الشرط التالية :

– (إذ) في قوله تعالى " فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون " وهي تفيد الشرط بمعنى (إذا) وهي ظرف زمان للماضي في محل نصب متعلق بمحذوف تقديره (كذبوا) وتأتي فيما هو كائن [٢٢٣]. إي : فإذا عجزوا عن ذلك الإتيان بالشهداء الأربعة ولم يقيموا بينة على ما قالوا فأولئك الخائضون في حكمه تعالى هم الكاملون

---

[٢٢٢] – لطائف الإشارات : ٦٠٢/٢ .

[٢٢٣] – دلائل الإعجاز : ص٦٤ .

في الكذب، وقد أفاد الشرط معنى التوبيخ والتعنيف للذين سمعوا الإفك ولم يجدّوا في دفعه وإنكاره. [٢٢٤]

– (إنْ) في قوله تعالى " يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين " وهي تفيد الشك، وتأتي فيما يترجح بين أن يكون وأن لا يكون[٢٢٥]، أي : إن كنتم مؤمنين فاتعظوا ولا تعودوا لمثله أبدا، فإن الإيمان يمنع عنه .

فهي أداة تشكك في أن يعودوا لمثله أبداً لكونهم مؤمنين، وفيها تقريع وحث وإهاجة لجماعة المؤمنين؛ لينتهوا عن مثل هذا الكلام وألا يقعوا فيه مرة أخرى، لما فيها من الدلالة على عدم الجزم بوقوع ما في خبرها، فكأن الحق تبارك وتعالى يقول لهم: إن عدتم لمثل هذا فراجعوا إيمانكم؛ لأن إيمانكم ساعتها سيكون إيماناً ناقصاً مشكوكاً فيه.

يقول القرطبي: " (إن كنتم مؤمنين) توقيف وتوكيد؛ كما تقول ينبغي لك أن تفعل كذا وكذا إن كنت رجلاً [٢٢٦]. " ويقول ابن عاشور" : (إن كنتم مؤمنين) تهييج وإلهاب لهم يبعث حرصهم على أن لا يعودوا لمثله لأنهم حريصون على إثبات إيمانهم، فالشرط في مثل هذا لا يقصد بالتعليق، إذ ليس المعنى: إن لم تكونوا مؤمنين فعودوا لمثله، ولكن لما كان احتمال حصول مفهوم الشرط مجتنباً كان في ذكر الشرط بعث على الامتثال، فلو تكلم أحد في الإفك بعد هذه الآية معتقداً وقوعه فمقتضى الشرط أن يكون كافراً وبذلك قال مالك " . [٢٢٧]

إذن لما حذر الله من العودة لمثله؛ اشترط لذلك إيمانهم من باب التهييج والتوبيخ وكأن المعنى: أن من فعل وعاد لمثله فليس بؤمن إذ (إن) شرطية .

---

[٢٢٤] – الكشاف : ٦٦/٣، التحرير والتنوير : ١٤٠/١٨، البحر المحيط: ٢٣/٨ .

[٢٢٥] – دلائل الإعجاز : ص٦٤ .

[٢٢٦] – الجامع لإحكام القرآن : ١٨٤/١٢ .

[٢٢٧] – التحرير والتنوير : ١٨٢/١٨ ، ١٨٣ .

-(مَنْ) في قوله تعالى " ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر " فالجملة واقعة موقع الجزاء للشرط المتقدم لتفيد التعليل للنهي عن اتباع الشيطان ؛ لأن من اتبع الشيطان صار مقتدياً به في الأمر بالفحشاء والمنكر، أو صار مرتكباً لها، ويكون دأبه الأمر لغيره بها وتصير فيه خاصية الشيطان هذه حتى يصير رأساً في الضلال يستهوي غيره ويطيعه أصحابه، ومن هذا شأنه لا ينبغي اتباعه وطاعته.

وفي الشرط معنى الوعيد الشديد لمن يتبع الشيطان، وحذف جواب الشرط لأنه يفهم من السياق، ودل عليه سبب علته والمسبب له، فيكون تقدير الجواب : من يتبع خطوات الشيطان يذقه ربه عذاب السعير؛ لأ، الشيطان لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر، فقام المسبب مقام جواب الشرط.

-(لولا) ومن المعاني التي تأتي بها أن تكون حرف امتناع لوجود، فتختص بالدخول على الاسم، وقد جاء هذا الاسم في كتاب الله عز وجل على حالات متعددة فجاء مصدراً صريحاً، وجاء مصدراً مؤولاً، وجاء ضميراً منفصلاً، وجاء اسماً غير مصدر، ويعرب الاسم الواقع بعدها مبتدأ محذوف الخبر وجوباً وتقديره موجود أو مبتدأ لا خبر له . وجاءت لولا بهذا المعنى في آيات الإفك في ثلاثة مواضع هي:

* قوله تعالى " ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم " فلولا هنا حرف لامتناع الشيء لوجود غيره، وجاء اسمها (فضل) مصدراً صريحاً أما جوابها وهو الفعل الماضي المقرون باللام في قوله (لمسكم) ودخول اللام في جواب لولا لتأكيد ارتباط إحدى الجملتين بالأخرى[٢٢٨] .

والآية تدل على امتناع العذاب لوجود الفضل والرحمة ، أي لولا فضل الله عليكم أيها السامعون والمستمعون ورحمته في الدنيا بالإمهال للتوبة وفي الآخرة بالمغفرة بعد

---

[٢٢٨] – دراسات لأسلوب القرآن الكريم : محمد عبد الخالق عظيمة، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٤، ط١، ٢/٥٧٥ البحر المحيط : ٨/٢٤ .

التوبة لأصابكم عاجلاً بسبب حديث الإفك الذي خضتم فيه عذاب عظيم .

والخطاب هنا للمؤمنين وفيه زجر عظيم لهم، فتفضل الله عليهم بالرحمة فلم يمسسهم كان لغرض وقصد فريد وهو العظة والعبرة، وجعلها للمؤمنين وسيلة إيضاح، فليس المراد أن ينزل الله بهم العذاب، إنما يعلمهم ويعطيهم درساً في حفظ أعراض المؤمنين .

*وقوله تعالى " ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم " حيث جاء اسم لولا –أيضا– هنا مصدراً صريحاً وهو (فضل) لكن حذف جوابها استغناء بذكره مرة سابقة.

*وفي قوله تعالى " ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد " جاء اسمها مصدراً صريحاً وهو (فضل) أما خبرها فجاء فعلاً ماضياً منفياً بما وهو (ما زكى) والشرط في الآية يفيد الحث على الإخلاص وتهييج عظيم للتائبين، فلولا فضل الله بأن هداكم إلى الخير ورحمته بالمغفرة عند التوبة ما طهّر أحد منكم نفسه من دنسها وفجورها ما دام حياً وما كان أحد من الناس زاكياً؛ لأن فتنة الشيطان عظيمة لا يكاد يسلم منها الناس لولا إرشاد الدين[٢٢٩] .

٤– أسلوب الحذف :

يعد الحذف من المبادئ الأساسية التي يقوم عليها منطق اللغة العربية، وهو من الظواهر اللغوية والبلاغية وقد قال عنه عبد القاهر الجرجاني "هو باب دقيق المسالك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتمّ ما

[٢٢٩] – من أسرار البيان القرآني : فاضل صالح السامرائي، دار الفكر، عمان – الأردن، ط ١، ٢٠٠٩م، ص٤٢ .

تكون بياناً إذا لم تبن " .[٢٣٠]

ويعد السياق العامل الأول والأهم في تقدير المحذوف، و"السياق هنا يتألف من المقام الخارجي، واكتمال النص تركيبياً، مع استصحاب واقع المخاطبين، ومقام المخاطَب والمخاطِب، واستصحاب أحوال الرسالة اللغوية جميعاً".[٢٣١]، كما أن "تقدير المعنى عنصر يسهم في تقدير المحذوف، وتقدير المحذوف عملية مهمة في تفاصيل المعنى. والأمران مرتبطان بالسياق؛ فتقدير المحذوف بالاستعانة بالسياق يؤدي دوراً رئيساً في فهم النص وتحليله. وحين يسكت النص عن ذكر بعض التفاصيل لدلالة السياق عليها نجد المفسرين والمعربين يعتمدون في تقدير ما قاله النص ضمناً بما ذكر من أجزاء النص من جهة، وبما يسعف به استصحاب واقع الحال من جهة أخرى".[٢٣٢]

ويقول الزركشي: "واعلم أن دلالة السياق قاطعة بهذه المحذوفات."[٢٣٣]، ويخصص الطاهر بن عاشور -رحمه الله- كلامه عن حذوف القرآن فيقول": إنك تجد في كثير من تراكيب القرآن حذفاً، ولكن لا تعثر على حذف يخلو الكلام من دليل عليه من لفظ أو سياق".[٢٣٤]

وابن كثير يدرك أهمية السياق في بيان الحذف، وتقديره بما يناسب النظم ويتجلى ذلك في تطبيقاته لهذا الأمر في تفسيره، فيستدل على المحذوف ويقدره من خلال السياق، ويقول بعد تفسيره لبعض الآيات وبيان المحذوف منها " وللمفسرين في تصوير نظم الآية محامل مختلفة، وكثير منها متقاربة ، ومرجع المتجه منها إلى أن

---

٢٣٠ – دلائل الإعجاز : ص١٤٦ .

٢٣١ – الخطاب القرآني : ص٣٤٨ .

٢٣٢ – السابق : ص ٣٤٨-٣٦٢ .

٢٣٣ – البرهان في علوم القرآن : ١٢٩/٣ .

٢٣٤ – مقدمة التحرير والتنوير : ١١٩/١ .

في النظم حذفاً يدل عليه ما هو مذكور فيه، أو يدل عليه السياق " . [٢٣٥]

ومن الأمثلة التي تدل على الحذف في آيات الإفك موضع الدراسة، وتبين أثر السياق في توجيهه ما يلي :

* حذف الحرف أو الأداة وجاء في قوله تعالى " ولا يأتل ألو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله " حيث حذفت (لا) النافية من جواب القسم فأصل الجملة (أن لا يؤتوا أولي القربى ...) فحذفت (لا) اختصاراً، ويعلل ابن عاشور لذلك بتناسب النص مع سياقه فيقول : " ولما كان السياق والسباق واللحاق موضحاً للمراد، لم يحتج إلى ذكر أداة النفي " . [٢٣٦] فالسياق اللغوي والمقامي عنده أولى بالاعتبار .

على أن هناك من يرى أن في الحذف إتباعاً للاستعمال الوارد عند العرب فحذف (لا) النافية في اليمين كثيراً لكثرة الاستعمال، كما في قوله الله تعالى "ولا تجعلوا الله عرضة لإيمانكم أن تبروا " البقرة٢٢٤، وقوله تعالى " يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا" حيث حذف حرف النفي للإيجاز وتقديره (لا تعودوا لمثله) وحذف حرف النفي كثير إذا دلّ عليه السياق.

وقال امرؤ القيس :

فقلت يمين الله لا أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسي إليك وأوصالي

أي (لا أبرح قاعداً) .

وفي هذا نظر للسياق الثقافي واستعمال معهود العرب في الإيضاح والتفسير.

* ومن حذف الاسم (حذف المفعول) وقد ذكر عبد القاهر الجرجاني أنه قد يكون

---

[٢٣٥] – التحرير والتنوير : ١٩١/١٢ .

[٢٣٦] – السابق : ٤٤٠/٥ .

الغرض منه إثبات معنى الفعل لا غير، وذلك كقولهم " فلان يحل ويعقد، ويأمر وينهى، ويضر وينفع... المعنى في جميع ذلك على إثبات المعنى في نفسه للشيء على الإطلاق وعلى الجملة " . [٢٣٧]

وهذا ما نجده في قوله تعالى " والله يعلم وأنت لا تعلمون " فحذف المفعول به وتقديره : والله يعلم جميع المعلومات وأنت لا تعلمون إلا ما علمكم به وكشفه لكم، والمراد إثبات هذا العلم لله " فهو لا يخفى عليه شيء. فصار هذا الذكر نهاية في الزجر، لأن من أحب إشاعة الفاحشة وإن بالغ في إخفاء هذه المحبة فهو يعلم أن الله تعالى يعلم ذلك منه، وأن علمه سبحانه بذلك الذي أخفاه كعلمه بالذي أظهره، ويعلم قدر الجزاء عليه " . [٢٣٨]

ونجده في قوله تعالى " ومن يتبع الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر " فقد حذف المفعول الأول – وتقديره (ومن يتبع الشيطان فإنه يأمر الإنسان بالفحشاء والمنكر) – للدلالة عليه.

ونجده –أيضاً– في قوله تعالى " ولا يأتل ألو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله " فحذف المفعول الثاني ليأتوا لظهوره، وتقديره (شيئاً أو النفقة والإحسان).

ومن هنا يظهر ملائمة السياق لمقاصد الشريعة فالله سبحانه وتعالى يعلم ما في إشاعة الفاحشة من المفاسد فيعظ الناس ليتجنبوا إشاعتها، فهم لا يعلمون فيحسبون التحدث بذلك لا يترتب عليه ضرّ، وحذف المفعول لبيان ذلك، كما حذف المفعول أيضاً لتوجيه الانتباه إلى الأمر بعدم مقابلة السيئة بالحسنة والمطالبة بالترفع ومقابلة الشر بالخير والعفو عند المقدرة، ولبيان الاهتمام والانشغال بالمفعول الأول (ليأتوا)

---

[٢٣٧] – دلائل الإعجاز : ص١٥٤ .

[٢٣٨] – مفاتيح الغيب : ١٨٤/٢٣ .

ومعطوفه وهو (أولى القربى والمساكين والمهاجرين).

* حذف جواب الشرط في قوله تعالى "إن كنتم مؤمنين" وتقديره : إن كنتم مؤمنين فلا تعودوا لمثله، فحذف الجواب لتقديم معناه، وفيه " تهييج وإلهاب لهم يبعث حرصهم على أن لا يعودوا لمثله لأنهم حريصون على إثبات إيمانهم، فالشرط في مثل هذا لا يقصد بالتعليق، إذ ليس المعنى : إن لم تكونوا مؤمنين فعودوا لمثله، ولكن لما كان احتمال حصول مفهوم الشرط مجتنباً كان في ذكر الشرط بعث على الامتثال[٢٣٩] ." ، وقد يأتي للاختزال والاختصار .

* حذف جواب (لولا) في قوله تعالى " ولولا فضل الله عليكم وأن الله رءوف رحيم"؛ لدلالة ما قبله عليه وبيان عظم الجريمة، وتقديره (لعاجلكم بالعقوبة أو لمسكم عذاب عظيم).

قال الرازي: (ولولا فضل الله عليكم وأن الله رءوف رحيم) فيه وجوه: أحدهم : أن جوابه محذوف وكأنه قال: لهلكتم أو لعذبكم الله واستأصلكم، لكنه رءوف رحيم.

الثاني: جوابه في قوله: (ما زكى منكم من أحد أبدا)

الثالث : جوابه لكانت الفاحشة تشيع فتعظم المضرة. والأقرب أن جوابه محذوف لأن قوله من بعد (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد) كالمفصل من الأول فلا يجب أن يكون جواباً للأول، خصوصاً وقد وقع بين الكلامين كلام آخر".[٢٤٠]

وقد يكون حذف الجواب وتركه لأمر عظيم " لقصد تهويل مضمونه فيدل تهويله على تفخيم مضمون الشرط الذي كان سبباً في امتناع حصوله. " [٢٤١]، فبيان فضل الله ورحمته في إنقاذهم من سوء محبة إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا أمر عظيم لابد

---

[٢٣٩] – التحرير والتنوير : ١٨/١٨٢ ، ١٨٣ .

[٢٤٠] – مفاتيح الغيب : ٢٣/١٨٤ .

[٢٤١] – التحرير والتنوير ١٨/ ١٨٦

من بيانه؛ لأنه لولا هذا الفضل حيث تاب على من تاب إليه وطهر منهم من طهر بالحد الذي أقيم عليه ؛ لمسهم العذاب الشديد .

يقول سيد قطب :" إن الحديث لعظيم، وإن الخطأ لجسيم، وإن الشر الكامن فيه لخليق أن يصيب الجماعة المسلمة كلها بالسوء. ولكن فضل الله، ورحمته، ورأفته، ورعايته..ذلك ما وقاهم السوء..ومن ثم يذكرهم به المرة بعد المرة وهو يربيهم بهذه التجربة الضخمة التي شملت حياة المسلمين " . [٢٤٢]

٤- أسلوب التكرار :

تأتي أهمية التكرار لما له من دلالة تؤثر في المعنى وتبين أهميته، فالتكرار ظاهرة أسلوبية لغوية لها معطيات دلالية تؤكد الخبر المكرر الذي ورد في النص، " والتكرير أبلغ من التأكيد؛ لأنه وقع في تكرار التأسيس، وهو أبلغ من التأكيد، فإن التأكيد يقرر إرادة معنى الأول، وعدم التجوز " . [٢٤٣]

وللتكرار أثر في تحقيق الغرض حسب السياق يتجلى ذلك في إيصال معنى ما إلى النفوس بطريقة بديعة بالأسلوب والتعبير، وصياغة المعنى في صور متنوعة، فلا نجد في القرآن تكرار المعنى بأسلوب واحد بل نلمس الجديد في طريقة التقديم والتصوير . إنه ظاهرة في القرآن تؤصل اللغة لما يستلزمه المقام ويقتضيه السياق لتحقيق المقاصد .

فالتكرار من أبرز مظاهر البلاغة القرآنية فهو يملك ناحيتين لفظية ومعنوية، فالجانب اللفظي يحدث نغماً موسيقياً لتوازي الفقرات من جهة الأصوات، أما الجانب المعنوي فهو يرتبط بمقتضى الحال .

وانفرد القرآن الكريم بتكرار الجملة دون الوقوع في الخلل والتباين بل نلمس الفصاحة المطلقة، فقد أعطى للأسلوب قوة على مستوى الحرف واللفظة والجملة

---

[٢٤٢] – في ظلال القرآن : ١٨/ ٢٥٠٤ .

[٢٤٣] – البرهان في علوم القرآن : ٣/١١ .

بوصفه في المكان المناسب من السياق مع قوة التماسك والتناسق .

وقد جاء التكرار في آيات الإفك موضع الدراسة في عدة مواضع منها :

*قوله تعالى " ولولا فضل الله عليكم ورحمته " فقد جاء تكرار هذه الجملة ثلاث مرات مع اختلاف المتعلق بها حسب السياق، وذلك للتذكير بفضل الله ونعمه التي أتمها على عباده، ولضرورة اقتضاها السياق، وبدأت جملة التكرار بـ(لولا) الذي هو حرف امتناع الدال على عدم امتناع وقوع أمر مكروه لوجود وتحقق فضل الله، والملاحظ أن في تكرارها عودة إلى التذكر .

ثم يمضي السياق ليوضح المسألة أكثر ويعود إلى التكرار؛ ليبين الله سبحانه وتعالى للجميع أن حسن الدفع عنهم كان بفضله ورحمته وجميل المنح لهم، وكل يشهد المنح ويشكر عليه، وعزيز عبد يشهد حسن الدفع فيحمده على ذلك [٢٤٤].

وهذا دليل على أن ما حدث كان للمؤمنين نعمة وخير وإن ظنوه غير ذلك، فالآية تكرير للمنة بترك المعالجة بالعقاب للدلالة على عظم الجريمة .

يقول ابن عاشور: " هذه ثالث مرة كرر فيها (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) وحذف في الأول والثالث جواب (لولا) لتذهب النفس كل مذهب ممكن في تقديره حسب المقام" . [٢٤٥]

*وقوله تعالى " يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر " حيث أعاد السياق ووضعهما موضع ضميريهما لزيادة التقرير والمبالغة في التنفير والتحذير من هذا الفعل القبيح حيث إن الآية في معرض النهي عنه، ولو لم يكن الحال على هذا النحو لاكتفت الآية بذكر

---

[٢٤٤] – لطائف الإشارات، تفسير القشيري : عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط٣، ٢/٦٠٠ .

[٢٤٥] – التحرير والتنوير : ١٨/١٨٥ .

ضمائر الاسمين الظاهرين هكذا (ومن يتبعها أو من يتبع خطواته) .

يقول الزركشي: "والأصل في الأسماء أن تكون ظاهرة، وأصل المحدث عنه كذلك، والأصل أنه إذا ذكر ثانياً أن يذكر مضمراً للاستغناء به عن الظاهر السابق".[٢٤٦]

فيأتي القرآن الكريم مظهراً الاسم في موضع الإضمار؛ لأن الاسم الظاهر له تأثير أقوى على النفس من الاسم المضمر، ومن أغراض وضع الظاهر موضع المضمر في الآية التهويل والتفخيم والإهانة والتحقير لشأن الشيطان، وتنبيهاً على خطر اتباعه.

*وفي قوله تعالى " لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين"، وقوله تعالى "ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم" .

فقد أعيد لولا وشرطها وجوابها لزيادة الاهتمام بالجملة وهي توبيخ عصبة الإفك، وذم لهم وتعنيفهم بعد أن سمى الله سبحانه هذه الحادثة بالإفك .

*وتكرار كلمة (عظيم) في الآيات المتتابعات (١٤ ، ١٥ ، ١٦) من الآيات موضع الدراسة وثيق الارتباط بالمعنى العام للآيات حيث يدل على أن نتيجة الإفك عذاب على المأفوك ومن يهمه أمره، ، فقوبل بالعذاب، ولما عظم الجرم وعظم الخطب كان العذاب كذلك عظيماً، ولم يوصف الجرم أو العذاب في الآيات إلا بالعظم .

يقول سيد قطب : " وما يعظم عند الله إلا الجليل الضخم الذي تزلزل له الرواسي، وتضج منه الأرض والسماء [٢٤٧] " فالإفك في حق أولئك المتهمين عظيم: عظيم من القاذف وعظيم من المقذوف بل وعظيم على المؤمن العفيف؛ لذلك كان التكرار فعالاً

---

[٢٤٦] – البرهان في علوم القرآن : ٤٨٤/٢ .

[٢٤٧] – في ظلال القرآن : ٢٥٠٣/١٨ .

يلح على نقطة هامة في الآيات.

كما أن تكرار (عظيم) في الآيات المتتابعات السابقة يعطي لنا إيقاعاً يقوم على التوازي، وهو إيقاع " يقوم على المناسبة اللفظية التامة لاتفاق الوحدات في الوزن والفاصلة " . [٢٤٨]

*وفي قوله تعالى " لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون "حيث تكررت كلمة (الشهداء) ولم يقل (فإذ لم يأتوا بهم) وذلك لزيادة التقرير وهو: تكذيب السامعين لما سمعوه بقولهم هذا: إفك مبين، وتوبيخهم على تركه.

*وفي قوله تعالى " الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم " يقول السمرقندي:

" (والخبيثون) من الرجال (للخبيثات) من الكلام على معنى التكرار والتأكيد ... و(الطيبات للطيبين) على معنى التكرار والتأكيد" [٢٤٩] .

وفيه تعريض بالمنافقين المختلقين للإفك بأن ما أفكوه لا يليق مثله إلا بأزواجهم؛ لأ، رسول الله صلى الله عليه وسلم أبرأ من أن تكون له أزواج خبيثات؛ لأن عصمته وكرامته على الله يأبى الله معها لأن تكون أزواجه غير طيبات، فمكانة الرسول كافية في الدلالة على براءة زوجه وطهارة أزواجه كلهن. [٢٥٠]

وفيه أيضاً إطناب لمزيد العناية بتقرير هذا الحكم ولتكون الجملة بمنزلة المثل المستقلة بدلالتها على الحكم ، وليكون الاستدلال على حال القرين بحال مقارنه حاصلاً من أي جانب ابتدأه السامع [٢٥١] .

---

[٢٤٨] – المناسبة اللفظية في القرآن الكريم: حازم علي كمال، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، د.ت، ص٥٨ .

[٢٤٩] – بحر العلوم : ٤٣٥/٢ .

[٢٥٠] – التحرير والتنوير : ١٩٥/١٨ .

[٢٥١] – السابق : ١٩٥/١٨ .

٥- أسلوب التقديم والتأخير :

يصف عبد القاهر الجرجاني أسلوب التقديم والتأخير في القرآن الكريم بأنه " باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدّم فيها شيء، وحول اللفظ من مكان إلى مكان[٢٥٢] ."

والتقديم والتأخير في القرآن الكريم يحقق غايات دلالية، ويسهم مع غيره في سبك النص، وتقليب وجوه التعبير فيه، مما يبعد عنه الرتابة والملل.

إن كل تقديم وتأخير في القرآن الكريم فيه حكمة بالغة، وقدرة فائقة، ليس فيه ما يفسد المعنى، وإنما فيه الواضح الجلي البليغ، وليس هناك ما يقوم مقامه، فكأن المعنى يقتضي ما تقدم أو تأخر اقتضاء طبيعياً، بما يؤثر في المتلقي تأثيراً واضحاً .

وجاء التقديم في آيات الإفك موضع الدراسة في عدة مواضع منها :

*قوله تعالى " لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين " إذ ظرف زمان بمعنى حين وهي ظرف للزمن الماضي متعلق بفعل الظن متقدم عليه، وتقديم الظرف (إذ سمعتموه) على عامله للاهتمام بمدلول ذلك الظرف تنبيهاً على أنهم كان من واجبهم أن يطرق ظن الخير قلوبهم مجرد سماع الخبر، وأن يتبرؤوا من الخوض فيه بفور سماعه .

يقول سيبويه: " والتقديم هاهنا والتأخير في ما يكون ظرفاً أو يكون اسماً في العناية والاهتمام، مثله ما ذكرت لك في باب الفاعل والمفعول وجميع ما ذكرت لك من التقديم والتأخير" .[٢٥٣]

ومن ثم " جاز الفصل بين لولا وفعله بالظرف لأنه نازل منزلته من حيث أنه لا

---

[٢٥٢] – دلائل الإعجاز : ص ١٠٦ .

[٢٥٣] – الكتاب : ٥٦/١ .

ينفك عنه؛ ولذلك يتسع فيه ما لا يتسع لغيره، وإنما قدم الظرف لأن ذكر الظرف أهم".[٢٥٤]

*وقوله تعالى " لولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم " فقد فصل هنا-أيضاً- بين لولا وفعله بالظرف، فتقدم الظرف (إذ سمعتموه) على عامله (قلتم) وفائدة التقديم بيان أن الواجب إنكار هذا القول على فور الإسماع بالإفك، فلما كان ذكر الوقت أهم قدم به (ما يكون لنا) أي ما يصح ولا ينبغي لنا أن نتكلم بهذا[٢٥٥]، ولو حتى بالنفي، فإنْ كان الكلام بالإثبات جريمة فالكلام بالنفي فيه مظنة أن هذا قد يحدث ومن ثم يكون الكلام ذماً لا مدحاً، فالتحدث بهذه التهمة لا يليق بأم المؤمنين ولو حتى بالنفي .

*ويأتي تقديم الخبر على المبتدأ في قوله تعالى " والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم" وقوله تعالى"إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة" وقوله تعالي " إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم" .

فقد قدم الخبر وحقه التأخير، وأخر المبتدأ وحقه التقديم، وذلك لأن الخبر وصف في المعنى للمبتدأ فاستحق التأخير كالوصف . ويجوز تقديمه إذ لم يحصل بذلك لبس أو نحوه[٢٥٦] . يقول سيبويه: " وتأخير الخبر على المبتدأ أقوى لأنه عامل فيه... لكن قد يتأخر المبتدأ أو يتقدم الخبر " وذلك قولك : فيها عبد الله، ومثله أثم زيد، وههنا عمرو، وأين زيد، وكيف عبد الله، وما أشبه ذلك ".[٢٥٧]

---

[٢٥٤] – التفسير المظهري : ٤٧٦/٦ .

[٢٥٥] – الكشاف : ٦٦/٣، التحرير والتنوير: ١٤٢/١٨، البحر المحيط : ٢٣/٨ .

[٢٥٦] – شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة، ط٢٠ ، ١٩٨٠م، ٢٢٧/١ .

[٢٥٧] – الكتاب: ١٢٤/٢ .

وفي هذه المواضع يأتي التقديم ليفيد الحصر والاختصاص أو لمشاكلة الكلام أو لرعاية الفاصلة، وجاء المبتدأ نكرة لتهويل الخطاب، أي لهم عذاب عظيم في الآخرة فهم في الدرك الأسفل من النار لأنهم منافقون بالإجماع، أما في الدنيا فيقام عليهم الحد إذا ثبت تورطهم في الإفك، كأنه لن يعذب إلا هم مع أنه قد يعذب بعض العصاة .

*وفي قوله تعالى "وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم " فقد تقدم خبر ليس (الجارو المجرور) على اسمها، وفي ذلك دلالة على أن ما قالوه قولاً مختصاً بالأفواه من غير أن يكون له مصداق ومنشأ في القلوب لأنه ليس تعبيراً عن علم به في قلوبهم .[٢٥٨]

فهو قول غير موافق لما في العلم ولكنه مجرد تصوير؛ لأن أدلة العلم قائمة بنقيض مدلول هذا القول فصار الكلام مجرد ألفاظ تجري على الأفواه وهذا من التأديب الأخلاقي؛ لأن المرء لا يقول بلسانه ما لا يعلمه.[٢٥٩]

*وفي قوله تعالى"ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم " حيث قدم المفعول الضمير على الفاعل الاسم الظاهر، وتقديم المفعول به هنا بغرض الاهتمام بالمقدم وإظهاره في السياق لتوجيه ذهن المتلقي إلى أن " الخطاب للقذفة وهو قول مقاتل، وهذا الفضل هو حكم الله تعالى من تأخيره العذاب وحكمه لقبول التوبة لمن تاب "[٢٦٠]

لأن الله أرد من هذه المسألة العبرة والعظة وجعلها للمؤمنين وسيلة إيضاح، فليس المراد أن ينزل الله بهم العذاب، إنما أن يعلمهم ويعطيهم درساً في حفظ أعراض المؤمنين.

---

[٢٥٨] – روح المعاني : ٣٧٢/١٣ .

[٢٥٩] – التحرير والتنوير: ١٤٣/١٨، الكشاف: ٥٤٠/٣ .

[٢٦٠] – مفاتيح الغيب : ٢٧٤/١١ .

*وفي قوله تعالى" وليعفو وليصفحوا " حيث قدم العفو على الصفح ؛ لأن في العفو ترك العقوبة على الذنب، لكن قد تعفوا عن الذنب ثم تؤنبه، وتمنّ عليه بعفوك، وتذكره دائماً أنه لا يستحق منك هذا العفو؛ لذلك يحثنا ربنا تبارك وتعالى على الصفح بعد العفو ؛ لأن الصفح هو ترك المنّ وعدم ذكر الزلة لصاحبها حتى تصبح العقوبة عنده أهون من عفوك عنه.

فالصفح أبلغ من العقوبة لما فيه من تجاوز الصافح الصفحة التي ثبت فيها الذنب إلى غيرها، ذلك لأن الحق سبحانه وتعالى يشرع للبشر ما ينظم العلاقات بينهم يراعي جميع ملكات النفس، لا يقتصر على الملكات التي تنتظم الخلق جميعاً، وليأخذ كل منّا على قدر إيمانه وامتثاله لأمر ربه .

*وفي قوله تعالى " يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعلمون " فقد تقدم (عليهم) على الفاعل (ألسنتهم) للمسارعة إلى كون الشهادة ضارة لهم، مع ما في التقديم من التشويق إلى المؤخر، ولا يخلو هذا عن حسن لما في الجار والمجرور من معنى الاستقرار والثبات للعذاب الواقع بهم .

وجاء تقديم (ألسنتهم) على (أيديهم وأرجلهم)؛ لأن هذه الأعضاء جميعاً عملا في رمي المحصنات وأولها اللسان، فهم ينطقون بالقذف ويشيرون بالأيدي إلى المقذوفات ثم يسعون بأرجلهم إلى مجالس الناس لإبلاغ القذف [٢٦١]، أو لأن اللسان محل القول في الأصل وهو طوع إرادتك بالنطق في الدنيا، وطوع إرادة الله وقدرته بالنطق في الآخرة، أما الأيدي والأرجل فهي جوارح لم يكن لها نطق في الدنيا لكنها ستنطق بإرادة الله يوم القيامة .

ومن ثم فإن التقديم فيما سبق أدى أغراضاً دلالية واضحة تعود إلى إبراز المقدم، والعناية به، وبيان أهميته، أو لتخصيص المعنى المقصود فيه .

---

[٢٦١] – التحرير والتنوير: ١٨/١٩٠ ، ١٩١ .

خاتمة

أولا : نتائج البحث

وفي نهاية بحثي هذا توصلت إلى ما يلي :

- يعد النمط القرآني أسلوباً فريداً في التعبير والأداء أستوعب أغلب الأنساق في تعبيره عن الظواهر اللغوية لخلق دلالات متنوعة وذلك بمعونة من قرينة السياق التي تعد كبرى القرائن.
- إن علماء العربية القدماء من لغويين وبلاغيين وأصوليين ومفسرين، قد درسوا مفهوم السياق دراسة مستفيضة، وبينوا أثره في النظم، وتحديد دلالات الكلمات والجمل، حيث أظهروا أن كل معاني الكلمات لا تظهر إلا من خلال السياق .
- إن أنواع السياق التي تم درسها وهي : السياق اللغوي ، والمقامي، والثقافي، وسياق المقصد، إضافة للسياق الكلي للخطاب القرآني، قد اتضح أثرها في آيات الدراسة، في معانيها ومبانيها الإفرادية والتركيبية
- ظهور أثر السياق في الترجيح بين المفردات القرآنية وتخير الدلالة الملائمة للمعنى من خلال أنواع السياق المختلفة فكان للسياق اللغوي النصيب الأوفر من خلال الدلالة المعجمية للألفاظ في معظم مفردات الدراسة نحو ما نجد في (الخير، الكبر، الظن، جاء، أفضتم، تلقّونه، بهت، يرمون، دين، الخبيثات)، أو المستوى الصرفي الذي أسهم في إثراء معنى المفردة كما في (يتّبع)، ويظهر أثر السياق الثقافي في الدلالة كما في مفردة (الإفك، وعصبة)، كما ظهر سياق المقصد في مفردة (ولا يأتل، والفضل)، وقد تضافرت تلك السياقات جميعاً في إعطاء المعنى الدلالي للنص .

- ظهور أثر السياق في البناء التركيبي للآيات الكريمات، **فسياق المقصد** قد استدعى الإتيان بأسلوب الإنشاء الذي يتطلب من المتلقي إصدار فعل تجاه السياق فدائرة الحدث فيها ترقب وانتظار، فضلاً عن أنه الأنسب لمقام التوجيه والإرشاد وتربية النفوس وتهذيبها ومن ثم تربية الجماعة والأمة ، ففي موقف كهذا الموقف الذي عاشه المسلمون وعانوا فيه مرارة فتنة الإفك ؛لتناوله بيت النبوة الطاهر وعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرض صديقه الكريم أبي بكر رضي الله عنه ، بل لما فيه الطعن على كل المسلمين والتهديد لنظامهم الخلقي العفيف الذي أسسه الرسول وأسس قواعده بين أفراد المسلمين ، فكان دعامة تفوقهم على أعدائهم وسبب نصرتهم عليهم ، فهم في أمسّ الحاجة إلى ما يوضح لهم السبيل وكيفية التعامل مع الموقف .وهم–أيضاً– في أمس الحاجة إلى تزكية وتطهير النفوس ، وتهدئة الخواطر وإزالة الغشاوات والآثار التي انعقدت في سماء المجتمع الإسلامي من جرّاء هذه الفتنة العمياء .
- كما ناسبه أيضاً استخدام أسلوب الشرط الذي يدل على التأرجح وعدم الثبات لحدوث شيء لشيء. وهو أسلوب للربط يقوم على فعل ورد فعل في الغالب وهو مناسب للسياق كل المناسبة، إذ يبين للمسلمين رد الفعل المناسب للموقف، والذي ينبغي أن يتميزوا به عن غيرهم كما أن أسلوب الحذف مما يتناسب مع عموم الشريعة وشمولها .
- أما **السياق المقامي** وما فيه من تعظيم الله لذكر الفاحشة بالباطل واتهام الغير بها دون بينة أو دليل واعتبارها جريمة تتعلق بالعرض، والكشف عن شناعة هذا الجرم وبشاعته لما فيه من إثم القاذف وتناوله بيت النبوة الطاهر، فقد اقتضى استخدام أساليب قوية لتقرير هذا الحادث ووصفه وتحديد الأدوار والمكائد التي قامت بها عصبة الإفك، فجاء التوكيد بمختلف

صوره كالقسم والقصر والجملة الإسمية وحرف التوكيد؛ ليسهم في تطمين خواطر المسلمين وتهدئتهم من عاقبة هذا الإفك، والوعيد والتهديد على أصحابه، والتربية والتهذيب والتحذير من الوقوع في مثله والتذكير بفضل الله ورحمته.

كما اقتضى استخدام الحذف لضيق المقام عن الإطالة، وأيضاً استخدام التكرار في تحقيق الغرض حسب السياق، يتجلى ذلك في إيصال معنى ما إلى النفوس بطريقة بديعة بالأسلوب والتعبير، وصياغة المعنى في صور متنوعة، إنه ظاهرة في القرآن تؤصل اللغة لما يستلزمه المقام ويقتضيه السياق لتحقيق المقاصد.

كما قضى استخدام التقديم والتأخير لتحقيق غايات دلالية، وليسهم مع غيره في سبك النص، وتقليب وجوه التعبير فيه، مما يبعد عنه الرتابة والملل. ولإبراز المقدم، والعناية به، وبيان أهميته، أو لتخصيص المعنى المقصود فيه .

ثانيا : توصيات البحث :

يوصي البحث بدراسة السياق بمختلف أنواعه من الجهة البلاغية لاستجلاء جوانب البلاغة المعجزة في القرآن الكريم، والكشف عن أثره في النفوس فالسياق مسألة ضرورية وحاسمة في مجال اللغة، حيث يسمح لنا بالحديث عن الأشياء بدقة ووضوح، ويمكننا من تحديد ودراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي والكلامي في استعمال اللغة، فهو يقوم بدور فعال في تواصلية الخطاب وانسجامه .

المصادر والمراجع

المراجع العربية :

القرآن الكريم .

ابن جُزيّ ، أبو القاسم محمد بن أحمد الكلبي، (1415) . : التسهيل لعلوم التنزيل، ضبطه وصححه وأخرج أحاديثه:محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان ، ط1.

ابن جني، أبو الفتح عثمان الموصلي، (١٩٩٩) : الخصائص، تحقيق : محمد علي النجار، المكتبة العلمية، ط٤ .

(١٩٩٩) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، وزارة الأوقاف – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط١.

ابن دقيق العيد، تقي الدين، د.ت : (إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة السنة ، القاهرة، ط١ .

ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده ، (2000): المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: د.عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية ، بيروت–لبنان، ط 1 .

ابن عاشور، محمد الطاهر،(2000): التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ، بيروت، ط 1.

ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب، (1993): المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق:عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيرو ، ط١ .

ابن عقيل ، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري(1980): شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث – القاهرة، ط 20 .

ابن فارس، أبو الحسين أحمد، (1979) : معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط 1 .

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمرو القرشي الدمشقي، (١٩٩٩) : تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢ .

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، : (2000)لسان العرب، دار صادر بيروت ، –لبنان ، ط .1

ابن هشام، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ، (2000): مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق : عبد اللطيف محمد الخطيب، الكويت، ط1.

ابن يعيش، موفق الدين أبي البقاء يعيش بن علي، (2001) : شرح مفصل الزمخشري، قدم له ووضع هوامشه: د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1 .

أبو السعود، العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، (١٩٩٩): إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، وضع حواشيه: عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١. الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد، (1967): تهذيب اللغة، تحقيق عبد السلام هارون وآخرون، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، د.ط.

إسماعيل، عز الدين، (1978): الأدب وفنونه، دراسة ونقد، دار الفكر العربي، مطبعة السعادة، القاهرة، ط7 .

الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، د.ت: المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سعيد الكيلاني، دار المعرفة، بيروت، د.ط.

الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود، (1983): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الفكر، بيروت، د.ط .

أوشان، علي آيت، (2000) : السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط 1 .

البركاوي، عبد الفتاح عبد العليم، (1991): دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، دار المنار، القاهرة، ط 1 .

بشر، كمال، (1997) :علم اللغة الاجتماعي، مدخل، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ط 3 .

د.ت : التفكير اللغوي بين القديم والجديد، مكتبة الشباب، القاهرة، د.ط.

البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، (1995)، معالم التنزيل، تحقيق :خالد عبد الرحمن العك ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت، ط 4 .

البقاعي، برهان الدين أبو الحسن بن عمر، (1972): نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط 1 .

البهنساوي، حسام، (2009): علم الدلالة والنظريات الدلالية الحديثة، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط1 .

البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، (١٤١٨هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق :محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط 1 .

التفتازاني، سعد الدين ، (1937) : شروح التلخيص للقزويني، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، د.ط .

التوحيدي، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان ، (2007) : تفسير البحر المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط 2.

أبو إسحاق، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي ، (٢٠٠٢) : الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق:الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت–لبنان، ط١.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (2003): البيان والتبيين، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، ط1.

(1965) ، الحيوان، تحقيق :عبد السلام هارون، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ط . 2

الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (2004) : دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 5 .

الجوزي، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن، (1987) : نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، تحقيق : محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، ط 3.

(2002) : زاد المسير، تحقيق :أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2 .

الجوهري ، إسماعيل بن حماد ، (1956) :الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفار عطا، دار العلم للملايين، ط 1 .

حسان، تمام، (1993) :قرينة السياق، بحث مقدم من كتاب التذكاري للاحتفال بالعيد المئوي لكلية دار العلوم، مطبعة عبير الكتاب، القاهرة،)د.ط.

(1995) :اللغة العربية ، معناها ومبناها، عالم الكتاب، القاهرة، ط .3 .

حمودة، طاهر، (1981) : دراسة المعنى عند الأصوليين، منشأة المعارف ، الإسكندرية، ط١ .

الخولي، محمد علي ، (1982) : معجم علم اللغة النظري، مكتبة لبنان، بيروت– ، ط1 .
الدامغاني، أبو عبد الله الحسين بن محمد ، (1998) :الوجوه والنظائر، تحقيق : فاطمة يوسف الخيمي، مكتبة الفارابي، دمشق، د.ت.
الداية، فايز ، (1985) :علم الدلالة العربي النظرية والتطبيق ، دار الفكر ، دمشق، ط1 .
الرازي، فخر الدين محمد بن عمر ، (1990) : مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، ط2.
الزرعي، محمد بن أبي بكر أيوب المشهور بابن القيم، (1996) :بدائع الفوائد، تحقيق: هشام عبد الحميد عطا وزميليه، دار نزار الباز، مكة المكرمة، ط 1.
الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر، (1957) :البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط 1 .
زكريا ، ميشال، (1938):الألسنية علم اللغة الحديث، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت –لبنان –ط 2 .
الزمخشري، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد، (1982) : أساس البلاغة، تحقيق : عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، د.ط.
(١٩٧٧) : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الفكر، بيروت، ط 1 .
الزيدي، توفيق، (1984): أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث، الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط .1
السامرائي، فاضل صالح، (٢٠٠٩): من أسرار البيان القرآني، دار الفكر، عمان– الأردن، ط١.
السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، (1982) :القواعد الحسان لتفسير القرآن، مكتبة المعارف، الرياض، د.ط
السمعاني، منصور بن محمد بن عبد الجبار التميمي المروزي الشافعي السلفي أبو المظفر، (1997): تفسير السمعاني، دار الوطن، الرياض، السعودية، ط 1.
السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، (1993) : عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، تحقيق : محمد التنوجي، عالم الكتب، بيروت، ط 1 .
سعد، محمود توفيق محمد، (١٤٢٢) : شذرات الذهب، دراسة في البلاغة القرآنية، ط١.
سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، (1988) : الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1 .

الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، (1997): الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار بن عفان، السعودية، ط 1 .

الشافعي، محمد بن إدريس، د.ت : الرسالة، تحقيق : أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، د ، ط .

الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٩٩٧م) : الخواطر، مطابع أخبار اليوم .

الشوكاني، محمد بن علي بن محمد ، (١٩٩٨) : إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، تحقيق: د.شعبان إسماعيل، دار السلام، القاهرة ،، ط١ .

الشيرازي، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، (1980) : القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط 1 .

بهجت عبد الواحد صالح، د.ت : الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل، دار الفكر، بيروت، ط١.

طبل، حسن، (2004) : علم المعاني في الموروث البلاغي، مكتبة الإيمان، المنصورة، ط 3.

الطبري، أبو جعفر بن جرير، (2000) : جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق : محمود محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 1 .

الطلحي، ردة الله بن ردة بن ضيف الله، (1423) :دلالة السياق، جامعة أم القرى، ط١

عبداللطيف، محمد حماسة، (1983) : النحو والدلالة مدخل لدراسة النحو الدلالي، دار الشروق ، القاهرة، ط 1 .

عبد المطلب، محمد أحمد، (1984): البلاغة والأسلوبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط .

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، (2002): الفروق في اللغة، دارالفكر، دمشق، د .ط .

العطار، حسن، (1999): حاشية العطار على جمع الجوامع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1.

عظيمة، محمد عبدالخالق دراسات لأسلوب القرآن الكريم، (٢٠٠٤): دار الحديث، القاهرة، ط١.

علي، محمد محمد يونس، (2007) : المعنى وظلال المعنى، أنظمة الدلالة في العربية، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 2 .

عمر ، أحمد مختار، (1988) : الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط 2 .

العموش، خلود، : (٢٠٠٩) الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق، عالم الكتاب الحديث، إربد – الأردن، ط١ .

الغرناطي، أبو جعفر حمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، (1412) :ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه من آي التنزيل، تحقيق الدكتور: محمد كامل أحمد، دار النهضة العربية، بيروت، ط1 .

الغزالي، لأبي حامد بن محمد، (1997) : المستصفى من علم الأصول، تحقيق : د.محمد بن سليمان الأشقر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط١ .

فتحي ، إبراهيم، (2000) : معجم المصطلحات الأدبية، دار شرقيات للنشر والتوزيع ، باب اللوق، القاهرة، ط 1 .

الفراهيدي، الخليل بن أحمد، د.ت : معجم العين، ترتيب وتحقيق : د.عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1 .

الفرّاء، أبو زكريا يحيى بن زياد، (1980) : معاني القرآن، تحقيق : أحمد يوسف نجاتي، ومحمد على النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط 2 .

القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك : لطائف الإشارات، (د.ت) : تفسير القشيري، تحقيق : إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط 3.

قطب، سيد، (١٤١٢) : في ظلال القرآن :، دار الشروق، بيروت – القاهرة، ط١٧ .

كمال، حازم علي، (د.ت) : المناسبة اللفظية في القرآن الكريم، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط١

المخزومي، مهدي، (1968): في النحو العربي، نقد وتوجيه، دار الرائد العربي، بيروت–لبنان، ط2 .

المظهري، محمد ثناء الله، (١٤١٢) : التفسير المظهري، تحقيق: غلام بني التونسي، مكتبة الرشدية – باكستان ، د.ط.

مظفر: جميل أحمد، (١٩٩٨): النحو القرآني قواعد وشواهد، مكة المكرمة، ط٢.

مفتاح، محمد، (1990) : دينامية النص تنظير وإنجاز، المركز الثقافي العربي، ط 3 .

المنجد، محمد نور الدين، (1999) : الاشتراك اللفظي في القرآن، بين النظرية والتطبيق، دار الفكر ، دمشق، ط 1 .

الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة، (1996): البلاغة العربية، أسسها ، وعلومها ، وفنونها، دار القلم، دمشق، ط 1 .

نهر ، هادي ، (2007) : علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، دار الأمل، الأردن، ط.١

الهاشمي، السيد أحمد، (١٩٩٩) : جواهر البلاغة في المعاني والبين والبديع، المكتبة العصرية، بيروت ط١.